339

HARLEQUIN

روايات أحلام

على ضفاف الرحيل

آن ويل

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة

على ضفاف الرحيل

هربت كولي من ضجيج حياتها إلى الريف الإسباني الساكن بحثاً عن الهدوء والسكينة . إلا أن قدوم المليونير الغامض عكر الصفاء الذي كانت تنشده !

بدا واضحاً أنه يريدها . وبدا أوضح أنه لا يريد ارتباطاً طويل الأمد ...

من الصعب جداً مقاومة السحر الإسباني . لكن كولي لا تسعى إلى علاقة عابرة ... خاصة مع السيد لوركا الذي يبدو أنه يخفي أسراراً كثيرة !

قررت كولي أن تبقى على مسافة من نيكولاس إلا أنه سرعان ما عاجلها بعرض كان من المستحيل عليها أن ترفضه !

١ ـ الجنتلمان

رنين الجرس البعيد جعل كالي تزمجر بصوت خافت، كما يفعل «موغ» عندما يشعر بالانزعاج. لكنها، هي والقط المرقط، أنيسان بطبيعتهما، فهي دائمة الابتسام كما القط دائم القرقرة. كل ما في الأمر أنها مشغولة حالياً بإعداد الغرف للنزلاء الليلة ولا تريد أن يقاطعها أحد.

أسندت الممسحة إلى الجدار، وسارت بعد أن ألقت نظرة على صورتها في مرآة كبيرة مرت بها. لم يكن هناك أي شبه بين هذه المرأة التي ترتدي بنطلون جينز وقميصاً مقفلاً وقفازين للعمل المنزلي، وبين الشخصية الحقيقية لسيدة الأعمال البالغة الأناقة. أي شبه بينهما ما هو إلا مصادفة، كما أخذت تفكر ساخرة. هل يصدق أحد أنها منذ أسبوع واحد كانت تحضر اجتماعاً في لندن؟

هبطت السلم الحجري بين الطوابق الثلاثة في ذلك البيت الإسباني، وركضت لتفتح المصراع الأيسر من الباب الضخم. في الماضي، عندما كان الباب يفتح على مصراعيه، كان يسمح بعبور بغل وعربته من خلاله إلى الإصطبل خلف البيت.

في الشارع أمام الباب، وقف رجل اسباني، بدا مثالاً للرجل الإسباني الفاتن، إذ يفوق طوله الستة أقدام مع بنية متينة مناسبة. وذكّرها شعره الأسود اللامع بالقبة التي تعلو نافورة القرية العربية

كان الرجل قد أنزل عن كتفيه العريضتين حقيبة ظهر ضخمة وأسندها إلى ساقيه الطويلتين، ما جعلها تظنه باثعاً متجولاً ينشد مبيتاً لهذه الليلة لكنه ما لبث أن قال بالإسبانية: «مساء الخير يا سنيورينا. لقد حجزت غرفة لثلاثة أيام. اسمي نيكولاس لوركا».

عندما اتصلت امرأة لتحجز الغرفة عبر الهاتف، ظنت كالي أن السنيور لوركا مندوب لإحدى الشركات، وأنه يريد أن يستغل نزل «كازا رورال» الذي يملكه والداها، كمركز معتدل الأجر لعرض بضاعته في المنطقة. إذ نادراً ما يأتيهم نزلاء إسبان أثناء الأسبوع، فمعظم نزلائهم أجانب كوالديها.

- تفضل بالدخول يا سنيور. لم نتوقع وصولك الآن، ولكن كل شيء جاهز لأجلك.

تكلمت بالإسبانية بطلاقة حتى لا يكاد أحد يظنها غير إسبانية.

- هل جئت من مكان بعيد؟

سألته وهو يدخل محني الرأس كيلا يصطدم بعتبة الباب العليا، فأجاب: «ليس من مكان بعيد».

ولم يزد كلمة واحدة، كما لم يبتسم كما يفعل الرجال عادة عندما يرونها وخصوصاً الإسبان. وفكرت بأنه غير ودود بطبعه، وقالت: «أظنك ستتخلص من حقيبتك قبل كل شيء، سأريك غرفتك».

عادت تسير أمامه إلى الطابق العلوي في النزل وهي تتساءل ما إذا كان السرير في الغرفة التي أعدّتها له سيناسب طوله، أم الأفضل أن تأخذه إلى غرفة بسرير مزدوج.

فتحت الغرفة التي جهزتها له، ودخلت: «أرجو أن تشعر هنا بالراحة. فهنالك حمام مع مياه ساخنة وفيرة. العشاء في السابعة والنصف لأن لدينا العديد من النزلاء الأجانب. ونرجو أن لا تتأخر عن

المائدة إلى ما بعد التاسعة، لأن الطاهية تذهب إلى بيتها في العاشرة. يمكنك أن تطلب منا أي شيء تحتاجه».

أثناء حديثها كان يلقي على الغرفة نظرة شاملة، مستوعباً الأثاث العتيق الذي جُدّد وطُلي، وقطع السجاد المتواضعة واللوحات الرخيصة المعلقة على الجدران. ولم يظهر على وجهه أي تعبير يدل على تأثير الغرفة في نفسه، سواء كان حسناً أم سيئاً. وقال بأدب: «شكراً».

فقالت: «ثمة شرفة قريبة من غرفتك تشرف على واد جميل، حيث يمكنك أن تجلس لشرب العصير. وسنكون ممتنين لك إذا أحضرت معك الكؤوس المستعملة إلى الطابق الأسفل».

ثم تركت الغرفة.

عندما انفرد نيكولاس بنفسه، فتح حقيبته وأخرج منها كيساً يحتوي على أدوات الغسل ثم أخذ يخلع ثيابه.

كان قد ترك، لأسباب خاصة، سيارته في كاراج في مدينة تبعد عشرة كيلومترات، ثم أمضى النهار يسير في الطرقات الجبلية التي قادته إلى قرية «الريكاراسكا» هذه، حيث ينوي قضاء بعض الوقت لينجز بعض الأعمال.

وكما وعدته الفتاة التي أدخلته، كان الماء الساخن غزيراً، وهكذا استمتع بحمام جيد بعد طول سير وتعرّق. فرغم أن الشهر هو تشرين الثاني، وأوراق الشجر ابتدأت تتساقط، إلا أن الجوّ لا يزال حاراً للغاية بالنسبة إلى شمال أوروبا وشمال أميركا..

أخذ يفكر بحيرة أثناء الاستحمام، أن كل الناس في هذه المناطق يتحدثون بلهجتين، لهجة هذا الجزء من اسبانيا، ولهجة كاستليانو وهي لهجة سائر أنحاء اسبانيا..

ما كانت تلك المرأة التي أدخلته لتدهشه لو سمعها في بيئته في مدريد، ولكن تصرفاتها غير عادية بالنسبة إلى خادمة في بيئة قروية.

لقد أدهشته بكل تصرفاتها، كاعتدادها بنفسها، عدم تشبهها بغيرها من الفتيات اللواتي يتحرشن بالشبان، فاهتمامها به لا يختلف عن اهتمامها بأي رجل في الستين من عمره.

لطالما اعتاد على اهتمام النساء به. ولعل هذا الاهتمام كان يملؤه غروراً وهو في الثامنة عشرة، إلا أنه لم يعد يهتم لذلك الآن، وقد ارتاح لعدم اكترائها به. تفكيره في نحافة خصرها وجمال قدّها وهي تصعد السلم أمامه أشعره بالإثارة. لكنه لن يتقرّب منها فالكثير من النساء الأنيقات المحنكات في مدريد جاهزات للتجاوب معه عندما يحتاج إلى صحبة أنثوية، وقد يتزوج واحدة منهن ذات يوم. لكنه، خلافاً لأخيه، ليس ملزماً باختيار عروس. كما أنه ليس مستعجلاً لهذه التجربة بعد أن شهد بأم عينه علاقات زوجية تنهار بعد عدة سنوات من الزواج.

حوّل المياه من الحرارة إلى البرودة، وعاد بأفكاره إلى الأسباب التي جاءت به إلى هنا.

في السادسة مساء، كانت كالي تعد المائدة لمن سيتعشى من النزلاء. سمعت خطوات على السلم، وبعد لحظات سمعت الرجل الإسباني يسأل إن كان هناك أحد. تركت غرفة الطعام واتجهت نحوه: «أنا هنا، أي خدمة؟».

كان الرجل قد حلق ذقنه و غيّر ملابسه وحمل بيده حقيبة صغيرة سوداء. وقال: «هل يمكنني أن أجد في مبنى قديم كهذا مقبساً لإيصال الكهرباء إلى هذا الكمبيوتر؟».

عندما تكون في إسبانيا فالكومبيوتر حياتها، لكنها لن تخبره بذلك: «هناك مقبس في المكتب، وهناك خطا هاتف أيضاً، بحيث يبقى أحدهما جاهزاً للرد على المخابرات فيما أنت تستخدم الخط الآخر. وأرجو منك أن تسجل مدة المخابرة».

أرشدته إلى غرفة المكتب وأضاءت المصباح، إذ لم يكن في

الغرفة نوافذ، ثم أشارت إلى المكتب: «إذا لم يكن السلك لديك طويلاً بما يكفي، فثمة وصلة يمكنك أن تستعملها».

وأشارت إلى مكان الوصلة.

ـ شكراً، ولكن هذه ليست مشكلة، هل لديك نزلاء كثيرون يستعملون الإنترنت؟

قال ذلك وقد بدت عليه الدهشة، فأجابت: «ليس كثيراً، ولكن هناك رجال أعمال يمضون هنا ليالي الأسبوع. عندما وصلت أنت مصطحباً حقيبة ظهر ظننتك واحداً منهم. إذا كان لديك أية مشكلة، يمكنك أن تناديني. اسمي كالي».

وعندما همت بالخروج، أوقفها بقوله: «كالي، هو اختصار لأي اسم؟».

ـ كاليتا. ولكن لا أحد يناديني كذلك.

ـ هل تفضلين أن ينادوك به.

ـ اعتدت على هذا التصغير لاسمي منذ طفولتي، هل أحضر لك شيئاً تشربه أثناء تفحّص بريدك؟

ـ لا بأس بكوب من العصير.

ـ سأحضره حالاً.

ثم خرجت.

لاحظ أنها هي أيضاً غيّرت ملابسها. وشعرها الذي يصل إلى كتفيها والذي كان مربوطاً بحلقة من المطاط، ثبّت الآن بمشط بلاستيكي أحمر. وككل نساء إسبانيا، كانت أذناها مثقوبتين ويتدلى منهما قرطان فضيان يتألقان في الضوء عند كل حركة منها. عادت بعد قليل وهي تحمل صينية صغيرة عليها زجاجة عصير وكوب فارغ، وكان قد استقر وجلس ينتظر بريده الإلكتروني.

ـ شكراً.

ردت عليه ثم خرجت من دون أن تنظر إليه أو إلى الشاشة اللامعة. بدا صوتها موسيقياً وكاحلاها منمنمين، كما لاحظ قبل أن تتوارى. وما لبث أن نسيها وهو يتلقى بريده.

ما إن انتهت كالي من إعداد المائدة، حتى حضر أبوها. وكان قد خرج إلى القرية المجاورة لشراء بعض البراغي والمسامير قبل وصول لوركا بفترة قصيرة. كانت تعلم لماذا أخذت هذه المهمة القصيرة كل ذلك الوقت الطويل، لكنها لن تعلق على ذلك متهكمة كما تفعل أمها.

علمت كالي منذ وقت طويل أن والديها ليسا كأي أبوين عاديين. إنهما متماثلان في الجنوح والعنف وعدم الشعور بالمسؤولية. فمع أنهما يتحببان إليها أحياناً لكن غالباً ما تراهما ساخطين.

عندما كانت طفلة، أحبتهما للغاية، ولكن مع مرور الزمن تراجع حبها لهما مع إدراكها أن أياً منهما لا يحب سوى نفسه. وقد أنقذتها جدتها من مساوىء والديها فأرسلتها إلى مدرسة داخلية في انكلترا وكانت تأخذها إليها لقضاء أكثر عطلاتها.

سألها أبوها: «هل وصل جميع المقامرين؟».

فهو عادة يدعو نزلاءه بالمقامرين، حين يكونان بمفردهما.

لم يكن اقتناء هذا النزل «كازا روراك» فكرة أبيها دوغلاس هيغ. بل فكرة أمها التي هي القوة الدافعة، كمحاولة منها لكسب المال والعيش بأمان. لكنه لم يمانع في لعب دور المضيف الأنيس المضياف.

- نعم، وصلوا جميعاً، وأتوقع أن يكونوا في الطابق السفلي بعد فترة قصيرة.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب، ودخلت امرأة ممتلئة الجسم صغيرة الحجم، تغطي ملابسها بمئزر قطني قديم الطراز ودون كمين. إنها جوانيتا، الجارة الأرملة التي تطهو طعام العشاء عندما تكون ماري هيغ

مصابة بالانفلونزا كعادتها أو مسافرة كحالها الآن.

كانت جوانيتا وكالي تثرثران عندما هبط من الطابق الأعلى رفيقان، قدّما نفسيهما بأنهما جيم وبيتي.

حيّتهما قائلة: «مساء الخير، أتريدان عصيراً».

بينما ابتعدت جوانيتا لتباشر عملها.

عندما يكون النزلاء جميعاً من النوع المتحفظ، يكون تلطيف الجو ضرورياً لتشجيعهم على التجاوب اجتماعياً. أما الليلة، فقد كانوا جميعاً ذوي شخصيات غير متحفظة، وسرعان ما انخرطوا في أحاديث مختلفة. الرجال يناقشون لعبة الغولف والنساء يقارنّ بين الأولاد والأحفاد.

كان النزلاء يتناولون شراب ما قبل العشاء عندما فوجئت بحضور السنيور لوركا. وهذا أمر لم تتوقعه، لأن الإسبان يتناولون عشاءهم متأخرين عن أكثر الأجانب عادة، وخصوصاً في المدن الكبرى.

كان أبوها قد انضم إلى مجموعة المتحدثين عن لعبة الغولف، وكالي تجلس خلف المنضدة تقرأ صحيفة «الموندو» الإسبانية التي اشترتها ذلك الصباح ولم تقرأها بعد. اقترب الرجل الإسباني، فيما اقتربت جوانيتا منها لتطرح عليها سؤالاً. أجابتها كالي ثم استدارت لتواجه الرجل الإسباني: «كوب آخر من العصير؟».

- نعم من فضلك، لكن ماذا لديكم هنا من أصناف العصير؟

ناولته قائمة المشروبات: «العصير البيتي على حسابنا، ولكن إذا كنت تفضل نوعاً آخر فلدينا مخزون جيد».

عندما أخذ يتفحص القائمة، أخذت هي تتفحص ملامح وجهه التي تعكس السلطة والنفوذ القويين. لا شك أنه ورث ذلك عن أسلافه العرب الذين حكموا، ذات يوم، هذه المنطقة من إسبانيا.

وبتزاوجهم، فيما بعد، من سكان إسبانيا الأصليين، أورثوا عيونهم السوداء وملامحهم المزهوة المتكبرة لذريّتهم. كانت دلائل النسب واضحة تماماً في هذا الرجل. عظام وجنتيه، فكه الأسفل، أنفه الحاد كالسكين، سمرة بشرته وسواد عينيه وشعره. كل هذه التفاصيل جعلته من تلك الحقبة من تاريخ إسبانيا التي لطالما أعجبتها. أعاد إليها القائمة: «سأجرب العصير البيتي».

فكرت أنه ربما لا يستطيع دفع ثمن العصير الغالي الثمن، رغم أنه لا يبدو فقيراً. وقد أدركت ذلك من نوع جهاز الكمبيوتر الغالي الثمن الذي يحمله. سألها وهي تناوله كأسه: «سمعتك تتحدثين بلغة سكان قالنسيا، هل ولدت في هذه القرية؟».

هزّت رأسها: «ولدت في الأندلس، وقد عشت في مناطق عدة من إسبانيا، وهذا يذكرني بأنني نسيت أن أطلب منك بطاقة هويتك عند وصولك. علينا أن نحتفظ بسجلّ لنزلائنا».

مد يده إلى جيبه وتناول محفظة أخرج منها بطاقة الهوية.

ـ شكراً.

وبعد أن سجلت التفاصيل، أعادتها إليه وهي تلاحظ أصابعه الرشيقة وعدم وجود خاتم زواج فيها.

سألها: «هل هناك فسحة لي على المائدة فأتناول الطعام مع بقية نزلائك؟».

ـ بكل تأكيد. المائدة تتسع لعشرين شخصاً. إذا لم يكن النزل ممتلئاً، أنا والمالك نأكل مع النزلاء. ولكن عليّ أن أنبهك إلى أن النزلاء، رغم أنهم يعيشون في إسبانيا، لا يعرفون من الإسبانية أكثر من بضع كلمات. إنهم قادمون من جاليات تعيش في الساحل حيث لا يحتاجون إلى التحدث بالإسبانية بطلاقة، أو ربما على الإطلاق.

ولأول مرة، رأته يبتسم لها، وأجفلها تأثير ذلك. حتى عندما

كانت أصغر سناً، لم تكن سريعة التأثر بسحر الرجولة كمعظم صديقاتها. وهي الآن، في السابعة والعشرين، وقد أصبحت منيعة تقريباً. ومع ذلك، عندما ابتسم هذا الرجل لها، جاءت ردة فعلها قوية وكأنه انحنى فوق المنضدة وعانقها.

ـ أعرف من الإنكليزية ما يكفي لتبادل حديث مؤدب. لكنهم سيكونون من الانشغال بالحديث مع بعضهم البعض إلى حد أنهم لن ينتبهوا إليّ. إنني أحب، إذا كان بالإمكان، أن أبقى حيث أنا لأتحدث إليك... عن هذه القرية والوادي... أو، إذا كنت مشغولة بملاحظة النزلاء، ربما يمكنني أن أتحدث إلى صاحب النزل. هل يتكلم الإسبانية؟

ـ ليس بشكل جيد جداً. السيدة هيغ أفضل منه في ذلك، ولكن بإمكاني أنا أن أخبرك بكل ما تريد أن تعرفه.

ـ منذ متى أنت تعملين عندهما؟

وقبل أن توضح له أنها لا تشتغل عندهما، جاء أحد النزلاء ليعيد ملء كأسه قائلاً لها: «الشراب نفسه مرة أخرى يا عزيزتي».

ثم قال للرجل الإسباني بالإسبانية: «مساء الخير. كان نهاراً جميلاً».

بدت لغته الإسبانية فظيعة، لكن من الواضح أن نيته طيبة، فابتسم الرجل الإسباني وأجابه بالإنكليزية: «مساء الخير، نعم. ولكن لا شك أن جوّ إسبانيا الحسن هو ما أحضرك للعيش في هذه البلاد، كما أظن».

ـ كلامك صحيح، يا صديقي العزيز.

قال الرجل الإنكليزي هذا وقد بدا مرتاحاً لأن ليس عليه أن يستمر في التحدث بإسبانيته المحدودة. حاولت كالي أن تتعوّد على فكرة أن نيكولاس لوركا يتحدث الإنكليزية كأحد أبنائها. هذا الإتقان للغة يدل على أنه لا بد تعلمها في حداثته واستعملها بطلاقة. شعرت بشيء من

الغيظ لأنه لم يصرح لها بذلك، وقوله لها إنه يتكلم بعض الإنكليزية هو تضليل متعمّد لها. وتساءلت عما إذا كان قد تضايق من مخاطبة الرجل الإنكليزي له بـ(صديقي العزيز)، ذلك أن الرجل كان يحاول أن يبدو ودوداً. المشكلة مع الإنكليز أنهم ينقصهم الإحساس غريزياً بسلوك وعادات أصحاب الجنسيات الأخرى. إنهم يفترضون أن اللغة السريعة التي يتحدثون بها مقبولة في كل مكان، بينما هي غير مقبولة هنا أحياناً.

- لا حاجة بك لأن تجلس وحدك، تعالى وتعرف إلى بقيتنا.

قال الرجل الإنكليزي ذلك وهو يشير إلى الأجانب الآخرين، فنهض الإسباني وهو يقول لكالي: «أرجو المعذرة».

سرّها احترامه لها. لو سار من دون أن يلتفت إليها، لغاظها منه ذلك، وكأنه يظن أن المستخدمة في هذا النزل الريفي لا تستحق أن تعامل كسيدة محترمة. وهذا سيظهره كرجل غير محترم. راحت تنظر إليه وهو يتعرف إلى الآخرين مصافحاً الرجال منهم ومقبلاً أيدي النساء بشهامة طبيعية، وكأنه اعتاد على وجودهم. وعندما أعلنت كالي أن العشاء جاهز، انتظم النزلاء الأجانب أزواجاً، تاركين الكرسي على رأس المائدة لأبيها بينما جلست هي بجانب نيكولاس في الجهة المقابلة.

ومرة أخرى، تصرف بشكل مهذب عندما سحب لها الكرسي لكي تجلس قبله. فقالت: «شكراً، ولكن لماذا لا تجلس بجانب بيغي؟ وبهذا يكون لديك من تتحدث إليه إذا انشغلت أنا مع جوانيتا؟».

- نعم، تعال واجلس بجانبي يا عزيزي.

قالت بيغي هذا وهي تربت على الكرسي الذي كان يقدمه إلى كالي. تبلغ بيغي مرحلة من السن بحيث تصلح أن تكون أماً له، لكنها ترفض الاستسلام لمرور السنين.

أول ما قدم من طعام هو الخيار بين حساء السمك والسلطة،

فحملت جوانيتا الإناءين بينما حملت كالي الصحون ودارتا على الحاضرين. وتراوحت أنواع الخبز على المائدة بين الطريّ والمحمص، ليناسب مختلف النزلاء.

كان نيكولاس يستمع إلى طرائف بيغي المثيرة عندما جلست كالي على الكرسي إلى جانبه الآخر. ألقت نظرة قلقة باتجاه أبيها وهي تلاحظ عليه دلائل الملل من حديث جارته.

فكرت طويلاً في اليوم الذي ستستقل فيه الطائرة عائدة إلى عملها الحقيقي في لندن. لم تمانع في أن تتخلى عن أسبوعين من إجازتها لتمنح أمها فترة استراحة من قرية الريكاراسكا، وتمنح كل من أبويها فرصة للابتعاد عن الآخر. وقد استمتعت بوجودها هنا محاطة بكروم العنب والجبال بدلاً من الشوارع وزحام السير.

لكن عملها كمحررة لدار نشر كبرى لم يعد تلك الوظيفة الآمنة الدائمة مدى الحياة كما كان في الماضي، حين كان النشر يوصف دوماً بأنه (مكان السادة الراقين). فقد أصبح اليوم مكاناً للتنافس المستميت يسوده تنقّل الموظفين وإخراج العمال الفائضين كأي عمل آخر.

ما يقلقها حالياً هو أن دار نشر «إدموند وبروك» التي تعمل لديها قد استلمتها شركة عالمية لديها مطابع حديثة. والآن، بات كل من في الدار ينتظر كيف ستعيد هذه المرأة المتسلطة، هاربيت ستو، تنظيم الفرع البريطاني من الشركة. ومع أن دار نشر «إدموند وبروك» مشهورة لجودة كتبها، إلا أنها لم تكن تحقق نسبة عالية من المبيعات، ولهذا كان صرف بعض الموظفين من الخدمة متوقعاً.

وهكذا، لم يكن هذا الوقت مناسباً بالنسبة إلى كالي للابتعاد عن عملها، لكن زيارة أمها لصديقة لها قُررت قبل تزعزع شركة النشر بوقت طويل، وكالي تعلم ذلك. وإذا ألغيت الرحلة، فستصل علاقة والديها الزوجية إلى أزمة حرجة. لم يكونا سعيدين معاً، لكنهما إذا

انفصلا سيقعان في مشاكل أسوأ، وسيكون العبء عليها أثقل مما هو الآن.

من الناحية الأخرى للمائدة مال فريدريك، وهو رفيق بيغي، نحو كالي قائلاً: «أظن أنّ أهالي القرية الذين يملكون تلك الكروم الصغيرة، سيفركون أيديهم ابتهاجاً لبيعها إلى مستثمري الأملاك. إنهم يرون أنفسهم وقد أصبحوا أغنياء كما حدث مع أصحاب الأراضي في المناطق الساحلية في الماضي أثناء الستينات والسبعينات».

فقالت: «إذا حلت المباني مكان الكروم سيفقد الوادي سحره. من المؤسف أن القانون غير صارم تماماً من هذه الناحية. لا ينبغي السماح للناس بأن يفسدوا الجبال ويبنوا عليها فيلاّت لقضاء الإجازات حيثما يريدون. يجب أن تكون هناك حدود لما يمكنهم بناؤه».

فقال الرجل ضاحكاً: «ربما هذا صحيح.. لكن بإمكان البنائين أن يلتفوا حول القانون بالطريقة القديمة..».

وأشار بحك إبهامه بأنامله بحركة من يدفع مالاً، ويعني بذلك الرشوة، ثم نظر إلى نيكولاس وأضاف: «لا أقصد أن أجرحك، يا سنيور، لكننا جميعاً نعلم أن هذا ما يحدث... وسوف يحدث دوماً».

فقال نيكولاس بجفاء: «ليست بلادي الوحيدة التي تستخدم فيها الرشوة، فالرشوة موجودة في كل مكان، لكنني أوافق السنيورينا كالي، إذ من المؤسف أن يسمح للتطور غير المنضبط الذي شوّه مساحات كثيرة من سواحل إسبانيا بأن يمتد إلى الداخل. ومن ناحية أخرى، يرغب بعض الناس بأن يستمتعوا بسنوات تقاعدهم في جوّ أفضل، وهكذا... لا مناص من بعض التطور هنا».

والتفت إلى كالي يسألها: «ما هو اسمك الكامل؟».

ـ هيغ.

فارتفع حاجباه: «هل أنت نصف إنكليزية؟».

ـ بل إنكليزية كاملة. وذاك هو أبي على رأس المائدة.

ـ إذن هذا هو سبب لغتك الإنكليزية الجيدة. ظننتك إسبانية.

ـ وإنكليزيتك جيدة أيضاً، كيف حدث ذلك؟

ـ إنها قصة طويلة سأشرحها لك في وقت آخر.

رغم أنّ جوابه كان رقيقاً، إلاّ أنها شعرت أن سؤالها قد أحرجه. ولم تفهم لماذا. لكنها كانت واثقة من ذلك. وشعرت، للحظة، بالرغبة في أن تلحّ عليه، لكنها عادت فأدركت أن هذا غير مناسب خصوصاً أنه نزيل يدفع أجراً.

على كل حال، كان الوقت قد حان لتقديم النوع الثاني من الطعام، وهو نوع تختص جوانيتا بتحضيره واسمه «بيرينجانا موديجار». أخذت كالي تمرّر الطبق حول المائدة، وسمعت بيغي تقول لنيكولاس: «أنا أعرف أن كلمة «بيرينجانا» تعني باذنجان، ولكن ما معنى «موديجار»؟».

واخترق الصمت السائد بين الجميع، صوت نيكولاس يرد عليها قائلاً: «موديجار هو اسم العرب الذين حكموا قسماً كبيراً من إسبانيا وأخرجهم منها جيش الملكة إيزابيلا. المسلمون الذين بقوا هنا أصبحوا عبيداً، لكنهم كانوا موضع تقديرٍ بالغ لمواهبهم الفنية، فأنت ترين أعمالهم في ما يدعى «هندسة الموديجار» المائدة للقرن الثالث عشر. وهذا الطبق الممتاز يذكرنا أيضاً بأننا ندين لسبعمئة عام من حضارة العرب».

ورفع كأس شرابه ونظر إلى جوانيتا التي كانت تغمس شرائح الباذنجان المشوي في مرق الثوم، وقال:

ـ نخب الطاهية.

وعندما ردّد الآخرون النخب، وابتسمت جوانيتا شاكرة، شعرت كالي بمودة نحوه، وذلك لأمرين، الأول لمجاملته لامرأة تعاني غالباً

من النجاهل، والثاني لتحمّسه لتاريخ بلاده. تمنت لو أن أباها هو الذي أجاب عن سؤال بيغي وشرب نخب جوانيتا، لكنه لم يقرأ كتاباً قط. وهو يعتبر الطعام الذي يجده أمامه والملابس النظيفة وكل وسائل الراحة أمراً مسلّماً به. ربما هذا ليس ذنبه، فقد دللته أمه أي جدتها الأخرى كثيراً. ولم يكن هو الرجل الوحيد من أبناء جيله الذي يظن أن من واجبات المرأة أن تسهر على راحة زوجها. وكان هذا أحد الأسباب التي جعلتها تتحفظ في علاقاتها، فلا تسمح لرجل بدخول حياتها. هي تعلم أن ليس كل الرجال كسالى أنانيين كأبيها، لكن أكثرهم كذلك. وسيكون من الصعب عليها أن تميّز حقيقة الرجل في بداية العلاقة عندما يتعمد إظهار أفضل السلوك. قالت بيغي: «أطباق ساخنة.. هذا رائع. غالباً ما تكون الأطباق، في المطاعم هنا، باردة».

ووكزت نيكولاس بكوعها بمودة: «لا أريد أن أبدو منتقدة، لأنني أحب إسبانيا ولا أريد العودة إلى بيرمنغهام ولو أعطوني أجراً لذلك».

كانت كالي قد وضعت لتوها صحناً أمام فريدريك، فالتقت عيناها بعيني نيكولاس عبر المائدة. وإذا به يغمزها بشكل لا يكاد يُلحظ إذ إن وجهه لم يتغيّر. وكان لهذه الغمزة تأثير قوي في نفسها، كابتسامته الأولى تماماً.

وتماماً، كما يبرز الضوء الأحمر في منطقة الخطر من شاشة جهاز الكمبيوتر، لينبهها لوجود فيروس، برز صوت في رأسها ينبهها: حذار!... هذا الرجل ذو جاذبية خطرة.

بعد الباذنجان، جاء دور اللحمة مع الخضار. وفي النهاية، كان هناك خيار بالنسبة إلى الحلوى، وذلك بين فطيرة الفاكهة من صنع جوانيتا، والآيس كريم من صنع السيدة هيغ، وسلطة الفاكهة مع القشدة.

انتظر نيكولاس حتى جلست كالي ليبدأ بتناول فطيرته: «أنتم

تقدمون أشياء ممتازة مقابل ما ندفعه من نقود».

ـ نحن نحاول ذلك، وهي الطريقة التي تجعل نزلاءنا يعودون. ولكن لدينا منافسة قوية في النُزُل الريفية الأخرى في المنطقة. ما الذي جعلك تختار هذا النزل وكيف اهتديت إلينا؟

ـ قرأت كتاباً من تأليف رافائيل سيبريان عن الجبال في هذه المنطقة. وقد وصف مكاناً يدعى «باران دي ليفرن» وبدا هذا لي تحدياً ممتعاً، هل سمعت عنه؟

ما سمعته عنه جعله يبدو مكاناً خطيراً يجب أن تتجنبه.

ـ حدثت حوادث عدة هناك بعضها أدّى إلى الهلاك، وهو خطر بعد المطر بشكل خاص. ما كان لك أن تأتي وحدك، فقد لا تخرج منه أبداً.

ـ لا تخافي، فأنا سأذهب مع بعض الرجال الذين يعلمون ما يفعلون.

وسكت وهو ينظر في عينيها بعزم: «لكنني مسرور لاهتمامك بسلامتي. عندما وصلت إلى هنا، ساورني شعور بأنك لا تحبين النظر إليّ».

كان هذا بعيداً للغاية عن أول تأثير تملكها عندما رأته لأول مرة... وهو أنه أكثر الرجال الذين عرفتهم سحراً... وكادت تضحك. لكنها قالت له بهدوء: «آسفة إذ بدوت غير مرحّبة، فأنا لم أكن أعني ذلك. عفواً، يجب أن أعدّ القهوة».

وفي المطبخ، قالت جوانيتا: «إلى متى سيبقى هنا ذلك المدريدي؟».

ـ ثلاث ليال. لكن، كيف عرفت أنه من مدريد؟

ـ من صوته... من سلوكه... من الجوّ المحيط به، إنه وسيم للغاية، أليس كذلك؟

- وباكو وسيم أيضاً.

قالت كالي هذا مشيرة إلى أكثر فتيان القرية وسامة، والذي يسبب القلق لأمه، بعد أن حطم قلوب فتيات عدة. فقالت جوانيتا باحتقار: «لكن باكو فتى عديم الأخلاق، لا يمكنك أن تقارني بين ذلك الذي لا يصلح لشيء وبين رجل مثقف حسن النشأة».

فقالت كالي باسمة: «أنت متكبرة. كثير من الأغنياء والأرستقراطيين سيئون بقدر ما هم بعض الناس العاديين وربما أكثر».

- هذا صحيح، فهم ليسوا أفضل... لكنهم ليسوا أسوأ كذلك. ألا تفضلين أن تكوني زوجة مدللة لرجل غني على أن تكوني مثل أمك مستعبدة لرجل فقير؟

لا شك أن جوانيتا وفية لماري هيغ، فقالت كالي: «أنا أفضّل أن أعيش مستقلة أعيل نفسي بنفسي».

- يمكنك أن تقولي هذا الآن وأنت في عزّ صباك. ولكنك لن تبقي دوماً شابة جميلة. سيحين وقت تريدين فيه أولاداً ورجلاً. أنا أعرف أن لديك مهنة ممتازة في لندن، ولكن عندما تصبحين في الخامسة والثلاثين قد لا تجدين عملك هذا مقبولاً.

على مائدة العشاء، كان نيكولاس يصغي إلى بيغي، ويفكر في كالي. فقد تعلم الظهور بمظهر المصغي الجيد إلى حديث النساء الكبيرات في السن، بينما هو يتابع سلسلة أفكاره، وذلك أثناء حفلات العشاء التي تقيمها أمه. فقد كانت هذه الأخيرة تُكرهه على البقاء لحضور تلك الحفلات.

كانت أمه ثرية للغاية كما كانت رائعة الجمال يوماً ما، لكنها تبدو حالياً بالغة التعاسة لأن جراحة التجميل لم تستطع أن تعيد إليها وجهها الفاتن، كما لم يحقق لها أي من أزواجها ما كانت تتوقعه. وها هي ذي الآن، وقد أصبحت وحيدة، تملأ وقتها بارتباطات اجتماعية تافهة،

وتفرغ مشاكلها على أي من أولادها الخمسة، بعد أن تتمكن من إقناعه بالاستماع إلى حكاية مفجعة طالما سمعها من قبل.

وإذ رأى من نظرة واحدة أن والد كالي شخص متكاسل لا يبدي اهتماماً بابنته، تساءل عما يجعل فتاة بذكائها الواضح تضيّع نفسها سدى بالعمل كخادمة في براري أرياف إسبانيا، إذ إن اتقانها للغات يخوّلها إيجاد عمل أفضل. رآها تعود بصينية القهوة فقفز ليأخذها منها.

- شكراً.

وعندما تلامست أصابعهما وهي تسلمه الصينية، تلوّن وجهها بلون فاتن. لم تكن الشمس قد لوّحت وجهها كالنساء الأخريات. لكن نيكولاس فضّل لونها الشاحب الذي يشبه القشدة على لون بيغي البرتقالي. إذ بدت كالي أشبه بزنبقة في حوض من الأزهار المبهرجة.

ذهبت كالي لتنام، وكان معظم النزلاء قد دخلوا غرفهم. لكن أباها ونيكولاس ورجل يدعى بوب، ظلّوا يتحدثون ويشربون القهوة في غرفة الجلوس. لكن نيكولاس لم يكن يكثر من الكلام مثلهما. كان فقط يطرح بعض الأسئلة ثم يستمع إلى الجواب باهتمام. تمنت كالي أن يذهب إلى سريره بسرعة قبل أن يصبح حديث أبيها مزعجاً ودون نهاية.

وفي سريرها التفتت بارتياح إلى الكتاب الذي كانت تقرؤه. إنه يتحدث عن تاريخ السفر بالجوّ. وعندما دقّت ساعة الكنيسة الحادية عشرة، وضعت كتابها وأطفأت المصباح ثم تأهبت للنوم.

أخذت الساعة تدق معلنة حلول منتصف الليل، وهي لا تزال مستيقظة وذهنها في دوامة من عدم الثقة بالمستقبل. وبعد ذلك بنصف ساعة نهضت من سريرها، وارتدت معطفاً منزلياً قطنياً وتناولت مصباحها اليدوي الصغير من على المنضدة بجانب السرير. هبطت

السلم حافية. لم يكن ثمة صوت في الطابق السفلي، وكان الظلام يغمره تماماً. يبدو أن شخصاً ما، ليس أباها بالتأكيد، تذكّر أن يطفيء الأنوار. دخلت إلى غرفة المكتب. ورفعت الغطاء عن الكمبيوتر الذي تستعمله أثناء وجودها هنا، ثم فتحت الانترنت راجية أن تجد رسائل الكترونية لها.

وعندما لم تجد بريداً لها، تملكتها خيبة الأمل، فتحولت إلى أخبار عالم الكتب ودور النشر، لكنها لم تجد شيئاً جديداً، فأغلقت الجهاز محبطة، ثم سارت إلى المطبخ لتتناول كأس ماء. وإذا بها ترى ثلاثة فناجين قهوة مغسولة موضوعة على صينية. أترى بوب هو من غسلها ونشفها؟ تملكها الشك في ذلك، فقد أشارت زوجته على العشاء إلى أنه لا ينفع في المطبخ. وهذا يعني أنه المدريدي، كما تسميه جوانيتا، كما يعني أيضاً أنه بقي في غرفة الجلوس حتى النهاية. وشعرت بالمذلة وهي تفكر في أن نيكولاس اضطر إلى الاستماع إلى أحاديث والدها السخيفة المليئة بالأكاذيب، وربما ساعده في صعود السلم بعد أن أصابه النعاس.

كان كل ما قاله نيكولاس أو فعله، يثبت وصف جوانيتا له بأنه فارس شهم، وبالتالي يملك كل المزايا التي تميز السيد الأصيل المهذب. شربت كأساً من المياه المعدنية ثم عادت تصعد السلم، كارهة العودة إلى السرير. وهكذا قررت أن تمضي نصف ساعة على شرفة «الروف». ولأن هذا المنزل لا يحتوي على فناء داخلي، بعكس أكثر البيوت الإسبانية، فقد كانت هذه الشرفة الواسعة هي المكان الوحيد الذي يمكن للمرء أن يجلس فيه ليستنشق الهواء النقي. وفيما عدا أيام البرد، يترك الباب الزجاجي المؤدي إلى الشرفة مفتوحاً، فيما تسدل ستارة رقيقة لتمنع الذباب والبرغش من الدخول. وعندما أزاحت الستارة، وجدت أن أحد النزلاء قد فكر مثلها تماماً إذ كان نيكولاس

يحتل الكرسي الخيزراني الذي كانت تنوي الجلوس عليه ماداً ساقيه على كرسي آخر. وقد تكوّر في حضنه هر والديها بكل ارتياح، مع أنه كان يختفي، في العادة، عندما يكون في النزل غرباء.

***

www.elromancia.com

٢ ـ تعالي معي . . .

مهما كان مقدار استغراقه في أفكاره فقد انتبه نيكولاس بسرعة إلى حفيف الستارة. لكنه لم يجفل كما كانت ستفعل لو أنها مكانه. نظر إلى خلفه فوجدها واقفة في العتبة. رفع الهر عن ركبتيه ثم وقف قائلاً بهدوء: «الليل أجمل من أن يمضيه الإنسان في النوم. إجلسي معنا، فقد تصادقت مع هرّكم.. أم أنه هر الجيران هذا الذي ينام على شرفتكم؟».

فقالت وهي تسير نحوه: «إنه لنا. كانت أمي تنزه الكلب منذ سنوات عندما سمعت مواء. ثم وجدت مجموعة قطيطات وكان هذا الهر الوحيد الذي بقي حياً بينها. وكان عمره أسبوعاً».

كانت تتحدث بلهجة جامدة، لكنها حتى الآن ورغم مرور سنوات على هذه الحادثة مازالت تشعر بدمها يغلي ويتملكها الاشمئزاز لتلك القسوة التي أُلقيت بها هذه القطيطات. أجاب نيكولاس بجمود مماثل: «هناك أناس متوحشون في هذا العالم».

كان يحمل الهر وكأنه طفل صغير، فيما يخرخر هذا الأخير راضياً رغم أنه لم يكن من عادته حب الغرباء. وساورت كالي فكرة غريبة وهي أنها كانت ستخرخر راضية هي أيضاً لو حملها نيكولاس بهذا الشكل، لكنها سرعان ما نبذت هذه الفكرة. فهي لا تعلم عن هذا الرجل، تقريباً، سوى أنه رجل غريب، رقيق محب للهررة وذلك لا

يعني أنه كذلك مع النساء. وحتى لو كان كذلك، فهي ليست من محبذي العلاقات العابرة.

ـ الليالي هنا هادئة للغاية.

قال نيكولاس هذا وهو يسير ليجلس على الجدار المنخفض الذي يحيط بالشرفة، والذي كان مزدحماً بأصص النباتات.

ـ بعض نزلائنا تزعجهم دقات ساعة الكنيسة.

لم تكن ترغب بالعودة إلى غرفتها، بينما الجبال المحيطة تسبح في ضوء القمر، وجوّ هذه الليلة من شهر تشرين الأول يماثل بدفئه ليلة صيفية في انكلترا. وهكذا جلست على الكرسي الذي كان نيكولاس قد تركه. ورغم أنها كانت ترتدي رداء من الكتان الأبيض فوق قميص نومها الكتاني الذي يصل إلى كاحليها، إلا انها شعرت بالخجل لأنها ترتدي ثياب النوم وتسير حافية القدمين، فيما نيكولاس لا يزال في كامل ملابسه.

ـ في طريقي إلى غرفتي، رأيت رفوف الكتب على جدار فسحة السلم. هل يمكنني استعارة كتاب منها لأقرأه في السرير؟

ـ طبعاً، إنها هناك لهذا السبب. ولكن قلّة من زبائننا يحبون القراءة، بل أكثرهم يفضلون مشاهدة التلفزيون.

ـ هل أنشأ والداك المكتبة أم أنهما اشترياها مع المنزل؟ قال أبوك إنه، مع أمك، أقاما العمل منذ ست سنوات فقط، ثم كافحا قليلاً لإنجاحه.

ـ لم يكن الأمر سهلاً في البداية. بعض الكتب الإسبانية وكل الكتب الألمانية جاءت مع المنزل. وبقية الكتب وجدتها في المكتبات، أو في متاجر الكتب المستعملة.

ـ ستعجبك المكتبات ومعارض الكتب في مدريد. هل ذهبت قط إلى العاصمة؟

ـ مرة واحدة عندما كنا نعيش في الجنوب. كان علينا أن نسرع بالعودة إلى انكلترا لحضور جنازة في الأسرة. وضعنا السيارة في القطار ثم نزلنا في باريس وفي طريقنا توقفنا فترة في مدريد. أردت أن أرى لوحات «غويا» في المتحف لكنه كان مقفلاً ذلك النهار. جوانيتا، وهي التي تطهو لنا في غياب أمي، ذهبت إلى مدريد في الربيع الماضي في «الباص» مع مجموعة سائحين من القرية فاستمتعت بوقتها للغاية. هل تسكن هناك دوماً؟

ـ لا، فقد ولدت ونشأت في الريف. أنا أحب مدريد ولكن. .

وسكت فجأة عندما قفز الهر فجأة من بين ذراعيه إلى الأرض ومن ثم إلى جزء آخر من الجدار ثم أخذ يحدّق إلى القسم الخارجي منه. فقالت كالي عندما اختفى الهر: «لقد سمع شيئاً يتحرك تحت قرميد سطح جارنا. إنه يتخيل نفسه صياداً لكنني لم أره قط يصطاد شيئاً. كنت تقول إنك تحب مدريد ولكن. .».

ـ لكنني لا أحب العيش في المدينة على الدوام. إنها مثيرة لكنها تهيج الأعصاب، فأنا أهرب منها من وقت لآخر.

ذهلت مرة أخرى لطلاقته في اللغة الإنكليزية، لكنها ترددت في الإلحاح عليه بأن يقول ما وعد بأن (يوضحه في وقت آخر) وتابع يقول: «وضعك بعكس وضعي. ألا تسأمين أبداً من العيش في قرية الريكاراسكا هذه؟ هل يقدم لك هذا ما يكفي من إثارة وحوافز؟».

فكرت في أن تخبره بأنها لا تعيش هنا بصفة دائمة، لكنها لم تشعر بميل إلى الحديث عن نفسها بينما هناك أشياء تتعلق به يفضّل ألاّ يوضحها. فقالت: «لم يعد ثمة مكان منعزل أو كئيب هذه الأيام، فقد جعل الإنترنت العالم كله تحت أطراف أصابعنا».

ـ هل تمضين كثيراً من الوقت مع الإنترنت؟

ـ كثيراً، وأنت؟

ـ أنا أشترك في موقعين، وأقرأ من بعض المواقع الأخرى. ما نوع الأشياء التي تقومين بها أنت؟

تملكها شعور بأنهما يتبارزان، لا يريد أي منهما أن يكشف عن نفسه. ومع ذلك، كانت تلاحظ مبلغ جاذبيته طوال الوقت. أعجبتها جبهته المرتفعة، وذقنه القوية، والطريقة التي كان ضوء القمر يبرز فيها ارتفاع وجنتيه.

في أواخر مراهقتها، عندما كانت تستغرق أحياناً في أحلام اليقظة، كان نوع وجهه هو الذي تحلم به لكنها لم تره قط في حياتها العادية. كان والداها حينذاك يعيشان في مقاطعة «تاراغونا»، ولم يكن الرجال هناك معروفين بالوسامة. أجابت: «أكثر الأحيان أقرأ نقد الكتب الموجودة في المكتبات. وأحياناً أنظر إلى ما يعرض في قاعات المزاد العلني. أهم ما في الإنترنت هو أن كل شيء متوفر لكل رجل. . وكل امرأة، كل ما يهمك، تجده وتجد من يتحمس له مثلك».

وابتسمت، فقال: «أسمع أن البعض يتعرفون إلى رفقاء من الجنس الآخر».

فهزت كتفيها: «هذا ما يقولونه. ربما هو المكان الأفضل لمن يرغب في رفيق ورفيقة، دوماً كنت أفكر أن الشخص الذي لا يتمتع بمظهر حسن يخسر كثيراً في العالم الحقيقي. قد يكون بالغ الذكاء لكنه يُحذف من الاعتبار لأنه غير وسيم».

دقت ساعة الكنيسة دقة واحدة. فأدركت أنها الواحدة صباحاً، وبعد خمس ساعات سيوقظها المنبّه لكي تجلس أمام الإنترنت حتى يحين وقت اغتسالها وارتداء ملابسها ثم تخرج إلى الفرن لإحضار الخبز الطازج لفطور النزلاء.

ـ هل تريد أن تأخذ معك غداء غداً؟

ـ هل هذا جزء من الخدمة هنا؟

ـ عندما ينزل عندنا متسلقو الجبال، نعم. إنهم يدفعون ثمن الطعام ولكن ليس أجرة إعداده. إذا كان لديك «ترمس» سنملأه بالقهوة أو الشاي. ماذا تحب مع الخبز؟ دجاج؟ جبن وخس؟ لحم غنم؟

ـ الدجاج يبدو فكرة ممتازة. أحب أن أغادر حوالى التاسعة. متى موعد الفطور؟

فوقفت: «أكثر النزلاء يريدونه بين الثامنة والتاسعة، ولكن بإمكانك أن تتناوله حالما أعود من الفرن في السابعة والنصف، إذا شئت».

ـ فلنقل الثامنة إلا ربعاً.

ـ لا بأس، تصبح على خير.

وعندما سارت إلى الباب، سبقها إليه وأزاح الستار جانباً.

ـ شكراً.

وكان عليها أن تمرّ بقربه، وما إن فعلت حتى وجدت نفسها تتساءل عما ستفعل لو أحاط خصرها بذراعه وجذبها إليه لتواجهه، لكنه قال فقط: «تصبحين على خير».

عندما عاد الستار ليقفل خلفها، تساءل نيكولاس عما كانت ستفعله لو أنه عانقها عناق المساء.

طوال الوقت الذي كانا يتحدثان فيه، كان واعياً إلى أنها ترتدي رداء النوم الطويل. ورغم أنه لم يلمح فيها أي جاذبية واضحة، كان يتصور دوماً أن بشرتها ناعمة للغاية.

نظر من فوق الجدار، فرأى الهرّ يلصق أنفه بالآجر وهو يرتجف إحباطاً لعدم تمكنه من الوصول إلى ما يختبىء تحته. أنا أفهم مشاعرك يا صديقي! فكر نيكولاس بذلك وهو يترك الهر لانتظاره الذي لا جدوى منه، ثم غادر الشرفة وأطفأ النور. اختار كتابين لكي يلهياه عن التفكير في ابنة دوغلاس هيغ الجذابة.

عندما نزلت كالي في الصباح التالي إلى الطابق الأسفل، ملأت إبريق الشاي بالمياه. بعد ذلك بقليل وفي طريق عودتها من فرن القرية، أدهشها أن ترى نيكولاس يندفع من شارع جانبي يؤدي إلى كروم العنب. كان يرتدي بنطلوناً قصيراً أسود وقميصاً أصفر من دون كمين. بدا واضحاً أنه كان يركض. لم يكن يلهث ولكن جسده كان ينضح عرقاً وشعره الأسود رطباً، جعداً قليلاً من الخلف.

وعندما أصبح بجانبها سألته: «ما طول المسافة التي قطعتها ركضاً؟».

ـ خمسة أو ستة كيلومترات. كانت الممرات بين الكروم رائعة وخالية تقريباً.

ـ أعرف هذا فأنا أتنزه فيها. هل تركض يومياً؟

ـ معظم الأيام.

ومسح العرق عن جبينه بساعده.

عندما وصلا إلى النزل، فتح لها الباب لكنه لم يتبعها إلى الداخل: «سأقوم ببعض تمارين الاسترخاء، ولن أغيب طويلاً».

حملت الخبز إلى المطبخ وهي تتساءل عما إذا كانت جارتهم التي تراقب دوماً القادم والخارج من نزلهم قد تأملت ذلك الرجل الطويل وروعة رجولته. لا بد أنه بالغ القوة ما جعله يتمكن من قطع تلك المسافة ركضاً ثم يعود وكأنه لم يفعل شيئاً. وعندما رأته بعد ذلك كان قد اغتسل وغيّر ملابسه وأنزل معه «الترمس» ليملأه.

ـ هناك ورقة ملصقة على ظهر باب الغرفة تقول إنه يوجد تسهيلات بالنسبة لغسل الملابس. ماذا يعني هذا؟

ـ يعني أن بإمكانك أن تضع ما تحتاج إلى غسله في الكيس البلاستيكي الكبير الموجود في الخزانة، وعند المساء تجده نظيفاً جاهزاً لترتديه أثناء الليل.

ـ الخدمة لديكم أفضل مما هي في فندق خمس نجوم. فغالباً ما يتطلب ذلك أربع وعشرين ساعة.

فقالت باسمة: «إننا نبغي إرضاء الزبائن. أتريد فطوراً مطهواً؟ يمكنني أن أطهو لك عجة فرنسية، أو بيضاً ولحماً مع الفطر أو سمكاً مشوياً مع البندورة».

ـ هل يمكنك طهو عجة مع الفطر والبندورة؟

ـ بكل تأكيد. لكنني لن أقوم بالطهو قبل أن تذهب إلى مقصف الإفطار وتختار لنفسك الشراب الذي تريده، ستجده خلف المنعطف، أظنك ترغب أيضاً في فنجان قهوة.

ـ نعم، ولكن قهوة خفيفة.

إنه لا يبدأ نهاره بالقهوة الثقيلة ككثيرين ممن تعرفهم في لندن. ماذا يمكن أن يكون عيبه يا ترى؟ أخذت تتساءل مدركة أن أكثر الناس لديها عيوب. عندما أحضرت له كوب القهوة، كان قد شرب كأساً من عصير البرتقال من الإبريق الموجود في المقصف، وابتدأ يأكل صحفة من عصيدة الحبوب.

ـ هل أنت ذاهب اليوم إلى «وادي جهنم»؟

ـ غداً، هل سيبقى الناس الذين تعرفت إليهم الليلة الماضية هنا الليلة؟

فأومأت بالإيجاب: «سأبدأ بتحضير العجة لك».

وعندما أحضرتها له، قال: «لا تذهبي. إبقي هنا وحدثيني. عدا عن الإنترنت، بماذا تسلين نفسك؟».

ـ أنا لا أخلو من العمل. هناك دور سينما قريبة ومعارض فنون. كما أن مدينتي اليكانتي وڤالنسيا مليئتان بالحيوية.

ـ أعلم هذا، فقد ذهبت إليهما. هل تذهبين غالباً إلى هناك؟

ـ تقريباً.

وكان هذا صحيحاً، فهي في ترددها على إسبانيا عدة مرات في السنة، كانت تستعمل مطاري المدينتين. وهي تفضّل مطار ڤالنسيا لأنه أكثر هدوءاً. وقالت تذكره: «أنت لم توضح لنا كيف اهتديت إلينا».

ـ من الإنترنت، كنت أبحث عن أماكن لتسلق الصخور في هذه المنطقة فوجدت موقعاً يعود إلى اثنين من المتسلقين المحترفين. وكان هناك قائمة بأسماء كل النُزل الريفية. وبدا لي نزلكم أفضلها بالنسبة إلى الأشياء التي أريد أن أقوم بها. هل تتلقين استفسارات كثيرة عن طريق الإنترنت؟

ـ الناس الذين يستعملون الآن الإنترنت للبحث عن أماكن يمضون فيها الإجازات، يزدادون يوماً بعد يوم. وصلتني رسالة عبر بالإنترنت هذا الصباح من نزيل سيحضر قريباً. إنه يريد أن يعلم إذا كنا نطهو طعاماً نباتياً.

وتذكرت أن نيكولاس حُجز له عبر الهاتف، فسألته: «لقد حجزت لك امرأة هاتفياً ولم تحجز بالإنترنت، لماذا؟».

فهز كتفيه: «لا أدري تماماً. لعل من كلّفتها بالحجز وجدت أن الهاتف أسهل من الإنترنت. لو شئت أن أمدّد إقامتي هنا، فهل يمكنني ذلك؟».

ـ بكل تأكيد.

وغاظها أن احتمال تمديد إقامته سرّها على المستوى الشخصي بقدر ما سرّها على المستوى العملي.

ـ سأجعلك تعلمين الليلة إذا قررت ذلك. كيف ستمضين نهارك؟

ـ سأكون هذا الصباح في العمل. وبعد الظهر قد أذهب بالسيارة إلى الشاطىء للسباحة. مياه البحر ما زالت دافئة لكن الشواطىء أقل ازدحاماً منها في الصيف.

ـ عندما وصلت أمس، كنت تقومين بأعمال البيت، هل تقومين

بذلك بانتظام؟ أم أن خادمة والديك مريضة؟

الجواب الصريح هو أن لدى أمها مشكلة في الاحتفاظ بخادمة، فتصرفات السيدة هيغ البالغة الغطرسة لم تحببها إلى الخادمات اللاتي كن يجئن ويذهبن عادة بعد شجار عاصف. لكن كالي ما كانت لتكشف كل هذا لنيكولاس، فقالت: «قلة من النساء يرغبن في تنظيف بيوت الآخرين بجانب بيوتهن هذه الأيام. وفي الواقع، هذا يعجبني بعض الشيء».

ولم تزد فتقول إنها لا تريد القيام بذلك العمل بدوام كامل. ألقى عليها نظرة أخرى من تلك النظرات العنيفة المحبطة قائلاً: «ذلك يضيّع قدراتك سدى».

فأجابت بمرح: «أنت لا تعلم أن لي قدرات أخرى».

- أنت تقرئين، تتكلمين لغات أجنبية. كل مظهرك وسلوكك يدلاّن على ذكاء واطلاع. لديك مهارة في الكمبيوتر وهذا ضروري في كل عمل هذه الأيام. بإمكاني أن أقول إن بإمكانك القيام بأي عمل هام.

أوشكت أن تقول له إن لديها، فعلاً، عملاً يسرها ويرضيها. ولكن، لسبب ما، بدا وكأن القدر منعها من ذلك، فقالت بحرارة لم تظهرها له قط من قبل: «شكراً لهذه الثقة. ليس من عادتي أن أتطفل على معرفة خلفيات النزلاء، إلا إذا تطوعوا هم للحديث عنها. ولكن عليّ أن أعترف بأن الفضول يتملكني لمعرفة نوع عملك».

ابتسم لها، فعاد إليها ذلك الشعور الذي تملكها من قبل. الشعور بشيء يذوب في داخلها. وقال: «خمّني».

أمكنها أن تتصوره بمعطف طبيب أبيض، أو بذلة طيار، أو، لجاذبيته الطاغية، كمقدّم برامج تلفزيونية ثقافية.

- ربما هو عمل يتعلق بالعلوم.

هز رأسه، ولكن قبل أن يخبرها بنوع عمله، دخل فريدريك

وبيغي. وتملك كالي الغيظ عندما قالت بيغي، بعد التحية: «أترانا قطعنا عليكما شيئاً؟».

فقال بلطف وهو يقف: «أبداً، فأنا خارج الآن. كانت العجة ممتازة، شكراً يا كالي، سأعود قبل العشاء».

فقالت وقد خاب أملها في معرفة نوع عمله: «ستجد غداءك و «الترمس» عند باب المطبخ على منضدة العمل».

والتفتت إلى الآخرين: «أتريدان شيئاً مطهواً للفطور؟».

بعد أن خرج جميع النزلاء لقضاء النهار في الخارج، وخرج أبوها ليلعب الغولف مع رفيقيه المعتادين، تنفست كالي الصعداء لبقائها وحدها في البيت عدة ساعات. تركت تنظيم غرفة نيكولاس إلى النهاية. وبعد أن قامت بتنظيف الغرف وتنظيمها، أخذت تفكر في عمل نيكولاس، متمنية لو أنها معه.

فتحت باب غرفته، كان نيكولاس قد ترك ثيابه المتسخة في الكيس الأسود على كرسي قرب الباب، وهي عبارة عن بنطلون جينز وقميص كان يرتديهما حين وصوله وملابس النوم التي ارتداها الليلة الماضية وملابس الركض.

كان أيضاً قد رتّب سريره وأكثر أمتعته، بعكس نزلاء الغرف الأخرى. وعلى المنضدة بجانب السرير وضع الكتابين اللذين استعارهما عن فسحة السلم. أحدهما «الباحثون الضالون»، وهو كتاب كلاسيكي عن الأسفار، وهو كتاب تمنت لو تمكنت هي من نشره.

أنزلت ملابسه المتسخة إلى الغسالة في الطابق السفلي، وبحركة لا إرادية دفنت أنفها في صرة ملابسه التي تحملها. وكانت رائحته قد علقت بقميص الرياضة، فأعادت لها هذه بكل وضوح، صورة جسمه القوي بسمرته اللامعة. ووجدت نفسها ترتجف قليلاً وقد اكتسحتها مشاعر طال كبتها، مشاعر كانت تعتقد أنها أصبحت منضبطة، فإذا بها

تنطلق فجأة ما جعلها تخاف مما قد تؤدي بها إليه.

في البداية، عندما ذكر أنه سيمدّد إقامته، شعرت بالسرور، لكنها أخذت تفكر الآن أنه كلما بكّر في الذهاب كلما كان ذلك أفضل، وذلك لأجل سكينتها النفسية. إن لديها ما يكفيها من العمل حالياً، فهي ليست بحاجة إلى ما هو أكثر مما يمكنها احتماله، على المستوى الشخصي.

جلس نيكولاس في الحديقة المشمسة لمنزل مهجور، وأخذ يتناول غداءه. عدا عن شطائر اللحم، وضعت له كالي موزة وتفاحة وثمرة يوسفي خضراء القشرة إنما حلوة المذاق. ومن الحلوى لوحاً من الشوكولا السوداء وبضع حبات من التين الجاف المختلط باللوز.

أخذ يفكر في الحديث الذي دار بينه وبين كالي في الصباح، وشعر بأن وضعها مريح بالنسبة إلى أبويها لكنه كارثة بالنسبة إليها. هناك أعضاء في أسرته يستغلون أعضاء آخرين، ولكن ذلك لم يحدث معه أبداً. وقد تعلّم منذ بداية حياته أن يقرر أموره بنفسه.

ربما كان سبب فشلها في إثبات وجودها والاستقلال بحياتها هو نشأتها في ريف هي ليست مواطنة فيه. فهي ليست إنكليزية ولكنها ليست إسبانية رغم طلاقة لسانها في اللغة. وهو قد لاحظ أن أولاد الديبلوماسيين لديهم شعور بعدم الانتماء، إذ ينقصهم الشعور العميق بتجذرهم في البلاد التي ولدوا فيها.

كان نيكولاس قد أمضى فترة طويلة من حياته خارج إسبانيا لأن عمل أبيه كان يستدعي رحيله إلى خارج الوطن، ثم، بعد طلاق والديه، أمضى من الوقت مع أبيه أكثر مما أمضاه مع أمه المنقلبة المزاج الأنانية. لكنه، بالرغم من خلفيته المنفتحة غير المتعصبة عنصرياً، كان يشعر في أعماقه بأنه إسباني كامل، وأنه ينتمي إلى هذه الأرض، إلى أين تظن كالي نفسها تنتمي؟ ربما ليس إلى أي مكان.

تذكر قولها إن الذهاب إلى ڤالنسيا أو أليكانتي لا يستغرق أكثر من ساعة. وفكر في سيارته السريعة التي تركها في أحد الكاراجات لأنها ستجذب كثيراً من الانتباه في القرية. ربما، إذا مدّد إقامته هنا، يمكنه أن يدعوها إلى أمسية سارّة راقية، هذا إذا لم يكن لديها صديق تحبه. إذ من الصعب الاعتقاد بأن فتاة جذابة في... الرابعة والعشرين؟ أو الخامسة والعشرين ليس في حياتها رجل... لكنه أحس بأن ليس لديها أحد.

عندما أنهى غداءه كانت حرارة الجوّ قد اشتدت. قرر أن يأخذ غفوة تحت شجرة تين قديمة هناك. وعندما استيقظ، كان الجو قد برد قليلاً، فدخل إلى البيت وأخذ يتفحص الغرف الخالية، باعتبار الامكانيات المختلفة للمستقبل.

عندما اجتمع النزلاء لتناول شراب قبل العشاء ذلك المساء، أخذوا يقصون على بعضهم البعض حكايات تحركاتهم ذلك النهار.

فريدريك وبيغي تناولا الغداء في نزل ريفي آخر يبعد ساعة، وكانت بيغي تقول لدوغلاس هيغ: «لكننا لم نحبه كما أحببنا نزلك. فهو عصري البناء وليس لديه جوّ خاص».

كانت هذا المساء ترتدي ثوباً أحمر ضيق التفصيل وتضع في أذنيها قرطين ماسيين، شعرت كالي لرؤيتهما بأنهما أكبر شأناً من أن يتناسبا مع هذه الجلسة الريفية المتواضعة. وتكهنت بأن بيغي تريد أن تؤثر بهما على نيكولاس ما بدا سخيفاً بالنسبة إلى سنّها. ولكن لعل فريدريك لا يوليها الاهتمام الذي تتلهف إليه.

عندما ظهر نيكولاس وتوجه نحوها، كان يرتدي القميص الذي غسلته وكوته له. فسألها: «هل أنت التي كويت قميصي؟».

ـ نعم.

ـ شكراً.

- العفو، ذلك جزء من الخدمة. ماذا تريد أن تشرب؟

- كوباً من عصير التفاح من فضلك.

سألته وهي تسكب له الكأس: «هل أمضيت نهاراً ممتعاً؟ إلى أين ذهبت؟».

- أمضيت يوماً ممتعاً، كما استمتعت بغدائي. منذ سنوات لم آكل تيناً مجففاً.

- إنه نقطة ضعفي، وأنا أحب التين الطازج أكثر، عندما يتوفر. التين المجفف لذيذ أيضاً، لكنه خطر.

- لا يبدو أنه يفسد رشاقتك.

وأكمل كلامه بالإسبانية: «وأنا واثق أن كل النساء الممتلئات خلفي يحسدنك على نحافة خصرك».

غاظها أن شعرت بوجهها يحمرّ، كانت تعتقد دوماً أن اللغتين الإيطالية والفرنسية أكثر رقة من الإسبانية، ولكن عندما تحدث نيكولاس بها بذلك الصوت البالغ الرقة، أصابتها رجفة. ارتاحت عندما انضم أبوها إليهما. ولم تتذكر إلا بعد أيام، أن نيكولاس لم يجب عن سؤالها عن نزهته ذلك اليوم.

في بداية العشاء، وبدلاً من تقديم النوع الأول من الطعام، دارت كالي وجوانيتا على النزلاء بأطباق خضار الحلفا مع الثوم والبقدونس. وسمعت كالي بيغي تقول لنيكولاس: «هممم... أود لو أحصل على وصفة هذا الطعام».

فقال نيكولاس: «إنه لذيذ، لكنه يسبب السمنة كما سمعت».

فهتفت بفزع: «لماذا تخبرني بذلك؟ ومع ذلك، الرجال يحبون النسوة الممتلئات، أليس كذلك؟».

نظرة الغزل التي رمقته بها جعلت كالي تشعر بالخجل لأجلها. وأجاب هو: «لا أظن. أكثرنا تجذبهم أجسام عارضات الأزياء».

عندئذ ابتعدت كالي عن مرمى السمع.

عندما جلسوا حول المائدة، جلس نيكولاس بجانب أبيها، تاركاً بيغي تجرب سحرها القاتل على رجل آخر. وجلست كالي عند الطرف الآخر من المائدة، كما فعلت الليلة الماضية. ولكن هذه المرة مع جيران. دورها كمضيفة تراقب ما إذا كان كل شخص يستمتع بعشائه، منعها من سماع ما يدور عند طرف المائدة الآخر. لكنها لاحظت أن أباها مستغرق في الحديث، بينما كان نيكولاس يستمع ولا يتحدث إلا قليلاً.

عندما انتهى العشاء وذهبت جوانيتا إلى بيتها، بدا أن النزلاء يميلون إلى السهر مدة أطول مما فعلوا الليلة الماضية. وعندما شعرت كالي أن أحداً لن يلاحظ غيابها ربع ساعة، ذهبت إلى المكتب لتتفحّص بريدها الالكتروني.

كانت تستقبل كل يوم آخر المستجدات من «بائع الكتب»، وهي مجلة أسبوعية تعدّ بمثابة الكتاب المقدس لتجارة الكتب الإنكليزية. وما قرأته الآن من آخر أخبار دار النشر التي تعمل فيها، جعلها تتأوه وهي تقرأ بصوت مرتفع: دار النشر «إدموند وبروك» ترى أن أرباحها ومبيعاتها تتناقص بنسبة كبيرة، وبهذا تزداد المخاوف من أن تجد دار النشر نفسها مرغمة على تخفيض نفقاتها وذلك بطلب من الشركة الأم في أميركا.

تحوّلت كالي إلى قسم قراءة الصحف. وما قرأته زاد في اكتئابها. فالشركة الأم لشركة «إدموند وبروك» سيكون عليها أن تخفض النفقات مئتي مليون دولار، ولا مناص من أن يقوم الفرع في انكلترا بهذا التخفيض الحاسم.

عادت تقرأ الخبر مرة أخرى. ثم أقفلت الجهاز وقد منعها الكدر من أن تتابع الإطلاع على بقية بريدها التي لم تعد تهمها. وبقيت عدة

دقائق مسمرة في كرسيها عالمة بأنها حين تعود إلى لندن، ستكون دار النشر التي تعمل فيها قد خفضت النفقات وأضيف اسمها إلى قائمة أسماء المحررين الذين صرفوا من الخدمة في السنوات الأخيرة. وأين ستجد مكاناً آخر يتلائم مع مواهبها بينما دور النشر تفيض بالمحررين العاطلين عن العمل؟

عادت كالي إلى غرفة الجلوس فقط لتكون موجودة إذا أراد شخص ما مزيداً من القهوة أو الشراب. لم تنضم إلى المجموعة المرحة التي كانت تحتل الأرائك والمقاعد المريحة، بل تسللت من دون أن يلحظها أحد إلى خلف المنضدة لتكون موجودة إذا أرادها أحد وغير ملحوظة في آن معاً. وبعد دقائق، وفيما كانت تتظاهر بقراءة الصحيفة، جاء نيكولاس إليها. رفعت رأسها حين سألها: «هل أنت بخير؟ يبدو عليك الكدر منذ دخولك».

فقالت بمرح: «هذه تخيلات منك فأنا بخير. أتريد شراباً؟».

ـ لا، شكراً. ما أريده منك هو أن نصعد إلى الشرفة ونتحدث عن الكتب. أتأتين؟

ـ لا أستطيع ترك العمل.

ـ أنت في العمل طوال السهرة، وأنا واثق أن بإمكان أبيك أن يحل مكانك. هيا بنا نتنشق بعض الهواء النقي.

وفي هذه اللحظة أطلقت بيغي ضحكة رنانة أجفلت كالي. وفجأة، لم تعد تستطيع مقاومة التمتع بهدوء الشرفة مع هذا الشخص الذي يماثلها في الطباع. فقالت له: «لا بأس».

رغم قولها هذا، خطرت في بالها أسباب عدة تجعل هذه الخطوة غير حكيمة، لكنها تجاهلتها.

***

٣ ـ دعوة مفتوحة

سألته وهي تصعد السلم أمامه: «هل أعجبك لحم الخروف المشوي؟».

فأجاب: «كان ممتازاً. طعام بيت حقيقي. أخبرتني هذا الصباح أن شخصاً نباتياً اتصل بكم. هل ينزل عندكم كثيرون مثله؟».

ـ ليسوا كثيرين، ولكننا نحسن إعداد عدد من الأطباق النباتية.

ـ أتذهبين إلى السباحة كما ذكرت لي سابقاً؟

تملكها الغرور وهي تراه يتذكر كل تفاصيل الحديث الذي دار بينهما عند الإفطار: «نعم، أحب ذلك طالما أنظر إلى البحر وليس إلى الشاطىء المسكين الذي أرى المزيد من الڤيلات والمساكن قد قامت فوقه في كل مرة أزوره».

ـ ألا تكثرين من زيارته؟

ـ لا. كنت مجنونة بالسباحة وأنا صغيرة. ولكن يبدو أنها فقدت جاذبيتها بالنسبة إليّ. الطريق إلى هناك يستغرق أربعين دقيقة وسيارة أمي القديمة أصبحت تصدر قرقعة مقلقة.

ـ أليس لديك سيارة خاصة بك؟

ـ لا أحتاج إلى سيارة.

لم تشأ أن تشرح له أنها تعيش في لندن، خصوصاً الآن بعد أن

أصبحت حياتها كلها غير مستقرة: «أبي لا يخرج دوماً في الليالي، ولهذا أستعمل سيارته، وهي أحدث طرازاً وأحسن حالاً».

- أليس لديك صديق دائم تخرجين معه؟

- لا. لا، ليس لدي. هل لديك أنت صديقة دائمة؟

وصلا إلى الفسحة العليا للسلم. وكما فعل من قبل، تقدمها ليزيح جانباً الستار. لكنه قال قبل ذلك: «لو كان لديّ صديقة، لما اقترحت الجلوس معك للحديث على انفراد».

فقالت وهي تخرج إلى الشرفة: «إذا كان لديك صديقة لا أدري ما الذي يمنعك من أن تتبادل أحاديث مع نساء أخريات».

- ولكن هل مشاعرنا تجاه بعضنا البعض هي مجرد مشاعر صداقة؟

أجفلت كالي. وكل تفكير في بريد الإنترنت المشؤوم ذاك تبدّد من ذهنها وتملكها نفس الذهول الذي كان سيتملكها لو أنها نظرت إلى قعر الوادي فرأت سفينة فضاء جاثمة هناك.

- وماذا يمكن أن تكون غير ذلك؟ أنت وصلت بالأمس فقط.

- كم يلزمك من الوقت لتشعري بانجذابك إلى شخص ما؟

سارت إلى حافة الشرفة ووقفت شابكة ذراعيها على صدرها وهي تدير ظهرها إليه. لم تعرف ماذا تقول. بإمكانها أن تنكر انجذابها إليه. ولكن هل سيصدقها؟ وقبل أن تقرر ما عليها أن تجيب، شعرت بيديه على كتفيها تديرانها لتواجهه، وهو يقول بهدوء: «لا أظنني تخيلت أن هناك ما كدّرك. فقد عدت إلى غرفة الجلوس ووجهك بشحوب وجوه الموتى. ألا يمكنك أن تخبريني عن ذلك؟ المشكلة المشتركة هي نصف مشكلة، كما كان أول أساتذتي باللغة الإنكليزية يقول».

بدا من الاهتمام والرقة ما جعلها، للحظة جنونية، تشعر بالرغبة في إراحة رأسها على صدره وإفراغ ما يقلقها. لكن، عندما حدقت إلى زر قميصه العلوي، وضع نيكولاس أصابعه تحت ذقنها ورفع وجهها

إليه. وما حدث حينذاك خرج عن سيطرتها، فقد نسيت كل شيء ما عدا رغبتها القاهرة في أن يأخذها بين ذراعيه ويعانقها. لم يكن ثمة مناص من هذا العناق لولا أن ارتفع نداء أخذ يزداد ارتفاعاً واستعجالاً من لحظة لأخرى: «كالي... كالي... أين أنت؟».

- إنه أبوك.

قال هذا وهو يتراجع متجهاً إلى أعلى السلم، بينما كانت تستجمع قواها وهي تتساءل عما حدث. لحقت بنيكولاس وسمعته يجيب من أعلى السلم: «كالي هنا».

قابلا دوغلاس هيغ في الجزء الأخير من السلم فأخبرهما وهو يلهث: «إنه فريدريك.. أظنه أصيب بنوبة قلبية».

وسرعان ما كان نيكولاس يهبط السلم قفزاً وهي في أثره تقول: «سأستدعي سيارة الإسعاف».

فقال من فوق كتفه: «دعينا أولاً نتأكد من أن الأمر ليس مجرد عسر هضم».

بعد ذلك بساعتين، كانا يتبعان سيارة الإسعاف إلى أقرب مستشفى، وحيث ساعدا بيغي في إنجاز الإجراءات الرسمية، ثم عادا إلى القرية في سيارة أبيها دوغلاس. قادت كالي السيارة في رحلة الذهاب إلى المستشفى، لكن نيكولاس أصرّ على أن يقودها في رحلة العودة، قائلاً وهو يمد يده ليأخذ منها المفاتيح: «أنت أمضيت يوماً شاقاً مجهداً».

ناولته مفاتيح السيارة، شاكرة له هذا الحرص الذي لم تعتده، وتملكها الارتياح حين لم يحاول أن يجري معها حديثاً، بل أخذ يركز على قيادة السيارة في الطرقات الريفية الملتوية. استرخت كالي بجانبه وهي تراقب بطرف عينيها يديه على عجلة القيادة. كان بإمكانها أن تواجه الحادث الطارىء وحدها، لكن عندما رأت فريدريك منهاراً في

غرفة الجلوس شعرت بالسعادة لتسليم مقاليد الأمور لنيكولاس. وقام هو بذلك بكفاءة ومعرفة جعلتاها تتساءل عما إذا كان طبيباً. ولكن، لو كان كذلك لكشف حتماً عن مهنته لموظفي المستشفى. أما بيغي التي توقعت كالي أن تراها ذاهلة متوترة الأعصاب أثناء أي وضع طارىء، فقد بدت هادئة بشكل مدهش. عندما كانوا ينتظرون وصول سيارة الإسعاف، قامت بتبديل ملابس السهرة فارتدت ملابس أخرى مناسبة وحزمت متاعهما، تاركة حقيبة خلفها، لتأخذ الأخرى إلى المستشفى حيث ستمضي ليلتها.

عندما اقتربا من القرية، قالت كالي: «آسفة لحدوث هذا في الليلة السابقة لرحلتك إلى «وادي جهنم». متى ستقابل الآخرين الذين سيذهبون معك؟».

- سنلتقي في التاسعة في حانة تدعى «أوازيس» في قرية «بني موريل». هل تعرفينها؟

- بالاسم فقط، إذ لم أذهب إليها قط. كيف ستذهب إلى هناك؟

- سيأتون لاصطحابي في الثامنة والربع.

كان أبوها قد طلب منهما ترك سيارته في كاراج القرية لأنه لم يكن يريد الذهاب إلى أي مكان آخر، وتمكن نيكولاس من تذكر الطريق إلى هناك من دون إرشاد. وبينما كانت كالي مرهقة للغاية، بدا هو لامع العينين مليئاً بالحيوية كما كان عند الإفطار. وردّت كالي أسباب ذلك إلى أنّ عمله مهما كان نوعه ليس في خطر. قالت وهي تقطع الشوارع الضيقة الفاصلة بين موقف السيارات ومنزل والديها: «شكراً لذهابك معي».

- يسرني تقديم أي خدمة، رغم أنك كنت ستقومين بالأمر تماماً من دوني.

- ربما... لكنني شاكرة مساندتك هذه.

عندما دخلا المنزل أدهشها أن تجد أن النزلاء مازالوا مستيقظين.

وقال نيكولاس وهو يدفعها نحو السلم برفق: «اذهبي إلى النوم يا كالي. سأخبرهم بكل ما نعرفه، تصبحين على خير».

تمتمت ترد التحية ثم صعدت إلى غرفتها وهي تشعر بالتعب.

في الصباح التالي تلقت رسالة عبر الإنترنت من صديقتها المحررة نيكولا راسل:

«مرحباً كالي

لا تبدو الأمور جيدة في دار «إدموند وبروك». لديّ شعور بأنك ستجدين نفسك في الظرف الذي كنت فيه عندما عاد ريتشارد من أميركا ليعيد تنظيم شركة «باركن ودوليز». ولكن بما أن نتيجة ذلك كانت جيدة على المدى الطويل، لا ينبغي أن تتكدري كثيراً. فما يبدو لنا كارثة، غالباً ما يتحوّل إلى فرصة جيدة.

لو أن بإمكاني أو بإمكان ريتشارد أن نقدم إليك بيتاً جديداً، لفعلنا بكل سرور، لكننا، كما تعلمين، صرفنا من الخدمة مع آخر دفعة من المصروفين، وهكذا، يحزننا ألاّ يستطيع أي منا أن ينجدك، ولكن تأكدي أننا سنراقب الأمور، وسنخبرك عند ظهور أي طارىء جديد.

سأتصل بك هاتفياً لمجرد الحديث، لكنني لن أفعل ذلك أثناء عملك مع الزبائن. من حسنات الإنترنت أنه لا يتطفل على حياة الناس كالهاتف.

عندما تعودين تعالي فوراً لتناول العشاء معنا، ثلاثة رؤوس هي أفضل من رأس واحد في هذه الظروف.

تقبلي حبنا وعناقنا من بعيد.

نيكولا

ملاحظة: أظن أن أمك محظوظة لأن لديها ابنة تتولى الأمور لأجلها. أكثر الفتيات ممن هن في العشرينات يتجاهلن والديهن ما عدا من تحاول استغلالهم. ريتشارد يراك بطلة أسطورية وأنا

كذلك».

شعرت كالي بالتعزية لمساندة نيكولا لها. ألقت نظرة سريعة على عناوين إنترنت لشركتين إنكليزيتين للنشر ثم على شركة للترجمة، ولكن أيا منها لم تشف غليلها.

نزل نيكولاس إلى غرفة الطعام مبكراً، وكذلك فعل نزيلان آخران. فلم تتمكن من إجراء حديث خاص معه إلى أن أعطته صرة غدائه في المطبخ: «تمتع بنهارك وانتبه إلى نفسك».

فأجاب باسماً: «شكراً، دوماً أفعل هذا».

أثناء النهار، تملكها القلق لأجله عدة مرات. هناك رجال ماتوا في منطقة «وادي جهنم» تلك. قيل مرّة إن راعياً غرق هناك وهو يبحث عن نعجة ضالة، بعد أن وقع في بحيرة داخل وادٍ ضيق عميق ولم يستطع الخروج منها بسبب لزوجة الصخور. وحديثاً حاول متسلقان أن يعبراها فسقط أحدهما وقُتل بينما بقي رفيقه معلقاً بحزامه حتى أُنقذ بعد عدة أيام.

هناك في الوادي، لم يفكر نيكولاس في كالي. ذلك أن تضاريس المنطقة الطبيعية استحوذت على كل اهتمامه. لكن بعد أن عبر ورفاقه المكان، كان أمامهم مسيرة أكثر من ساعة ليعودوا إلى حيث تركوا السيارة. أثناء ذلك راح يفكر فيها متسائلاً عما كدّرها في الليلة الماضية، وكيف كانت ستتجاوب إذا عانقها.

الليلة الماضية، على الشرفة عندما هم بمعانقتها بدا على وجهها تعبير غريب هو مزيج من التردد والشوق. لم يكن تعبيراً واثقاً لامرأة تعرف أنها جميلة ومعتادة على صحبة الرجال وتوددهم. ربما هي لا تعلم أنها رائعة الجمال لأنها لا تبدو كعارضة أزياء أو كمغنية شعبية. لعل كالي لا تدرك أن جمالها من النوع النادر الذي يدوم حتى في الملابس الرخيصة. عليها أن تكوّن لنفسها طابعاً خاصاً بها. فإذا

ارتدت نوع الملابس الذي ترتديه الأخريات، ستكون خاسرة.

تناول نيكولاس العشاء في الخارج تلك الليلة. وتكهنت كالي أنه يريد أن يسهر ويمرح مع الرجال الذين أمضى النهار معهم. وعندما غادر بقية النزلاء النزل بعد دفع الحساب، أخذت جوانيتا تلك الليلة عطلة بينما طهت كالي عشاء لها ولأبيها.

توقعت أن يتأخر نيكولاس في النوم بعد تلك السهرة، أما هي فخرجت مبكرة لتقوم بنزهة على الأقدام.

أخذت تسير في الممرات الضيقة والطرق الترابية بين الكروم الصغيرة، وهي ترغم نفسها على ألاّ تفكر في الكارثة التي تحدث في لندن، بل تركز على بهجة الحاضر. الهواء النقي، أشعة الشمس، الجبال المحيطة التي تتغير أشكالها مع تغير الضوء.

في الناحية الأخرى من الوادي، وهو الاتجاه الذي كانت تسير نحوه حالياً، بدت تلة صغيرة تغطيها الأشجار التي نجت من حرائق الصيف. وهو بلاء يصيب أنحاء كثيرة من إسبانيا أثناء الصيف الطويل الحار. كانت قد سمعت بأن هناك بيتاً مهجوراً منذ عشرات السنين، متوارياً بين الأشجار. وفكرت في أنها ستحاول يوماً أن تتحقق من صحة هذه القصة، هذا إذا سمح لها وقتها بذلك.

كانت قد أنهت الجزء الشاق من سيرها، وسلكت طريق العودة إلى القرية عندما سمعت شخصاً يركض خلفها. نظرت إلى الخلف، ولكنها دهشت عندما رأت نيكولاس. فقالت وهي تتباطأ في سيرها ليدركها: «صباح الخير، ظننتك ستتأخر في النوم بعد سهرتك بالأمس».

ـ صباح الخير. عدت في منتصف الليل. سيذهب الآخرون إلى تسلق الصخور في «بينون ديفاخ» اليوم. لكن السهر والتسلق لا يتفقان.

ـ ألن تذهب معهم؟

- لدي أمور أخرى أقوم بها. هل أنت مشغولة اليوم؟ هل لديك وقت توصليني فيه بالسيارة إلى مكان أريده؟

بالرغم منها وجدت نفسها تقول: «سأكون بلا عمل تقريباً اليوم حالما أنهي تنظيم الغرف».

- سأساعدك. عندما كنت صبياً علموني كيف أرتب سريري كما يتم ترتيب أسرة المستشفى.

فقالت باسمة: «أحقاً؟ لا يبدو عليك أنك من الأشخاص الذين يعرفون ذلك».

فقال باسماً بدوره: «عليك ألاّ تحكمي على المظاهر. لدي مهارات كثيرة غير متوقعة. إذا أعطيتني كرة خيوط صوفية وبكرة قطن قديمة، يمكنني أن أصنع لك حبلاً طويلاً».

- أنا أيضاً أعرف ذلك، فقد علمتني إياه جدتي في طفولتي.

- العالم مليء بالمهارات الغريبة التي يرثها الأحفاد عن جدودهم، رغم أن هذا النوع من الجدات لم يعد له وجود الآن. فالجدة في الماضي كان لديها الوقت الذي تشاء، ولم يعد الحال كذلك اليوم.

قال هذا ساخراً فقالت: «ليس هذا فقط، لا أظن أن الأولاد هذه الأيام يهتمون بذلك. إنهم أكثر حنكة وخبرة مما كنت عليه في الخامسة أو السادسة».

فهز كتفيه: «أغلبهم كأكياس البطاطا. أولاد إخوتي يمضون أوقاتهم مسمّرين أمام شاشة التلفزيون أو الكمبيوتر، والله يعلم أي مشاكل صحية تنتظرهم عندما يكبرون».

قالت: «حسناً، أنت لست كيس بطاطا، فقد نظرت حولي منذ دقائق عندما كنت أفحص نبضي ولم أر لك أثراً وإلا لكنت رأيت قميصك الأصفر من بعيد».

- أنا أعرف أنه لون فظيع، لكنه واضح جداً في ضوء السيارات

عندما أركض ليلاً للاسترخاء بعد نهار شاق.

- إنه لون يتلاءم مع البشرة السمراء. وهل أيامك شاقة دائماً؟

كانت متلهفة لأن تعرف نوع عمله، فقال: «عملي ليس سيئاً. في الواقع... إنه ليس أسوأ من معظم الأعمال. لكنني أعمل في جوّ مكتبيّ، وأنا أساساً، شخص يفضل العمل خارج الجدران، رغم أنني أشك في أنني سأكون أسعد حالاً لو كنت أعمل في الأرض كما يفعل كل شخص في هذه المنطقة. إنه عمل شاق بكسر الظهر، ولا أحد يحب أن يقوم به إذا استطاع الحصول على عمل أسهل».

قررت كالي ألاّ تبدأ بالتكهن عن طبيعة عمله بالضبط. فهو سيخبرها أو لا يخبرها. سألته: «إلى أين تريدني أن أوصلك؟

- آه، ليس بعيداً. هل يمكننا أن نغادر في الواحدة ونعود في الخامسة؟ هل هذا يناسبك؟

- تماماً... ولكن إلى أين سنذهب، ولماذا؟

فنظر إليها مداعباً: «ألا تحبّين المفاجآت؟ آه.. آسف، نسيت أننا لم نتعارف بشكل تقليدي. لديك الحق في أن تكوني حذرة في الخروج مع شخص غريب».

- هذا لم يخطر في بالي، فقد خرجت معك تلك الليلة من دون حذر.

- كانت تلك حالة طارئة إلى المستشفى. لم يكن لديك وقت للتفكير في الأمر. أما اليوم فالوضع مختلف. سأوضح ما في نفسي، أريد أن تتناولي الغداء معي في فندق رأيته في الجبال بالأمس. ولكن، ربما سبق لك أن ذهبت إلى هناك.

- لقد سمعت عن ذلك الفندق لكنني لم أذهب إليه، ولكن بعض نزلائنا ذهبوا وقد أعجبهم. إنه في موقع رائع وأظن أن المهندس الذي صممه يحب الطبيعة للغاية.

- رأيته فقط من بعيد. ويبدو أنه كما تقولين.

- أحب أن آتي معك. آه..

شهقتها تلك كانت بسبب رؤيتها لكلب صيد إسباني يندفع نحوهما بسرعة البرق. وقد اصطدم هذا الكلب الفتيّ البالغ الحيوية بكالي مرتين من قبل دون أن يسبب لها أي أذى، لكن صاحبه، هذه المرة، كان ينظر في اتجاه آخر فلم يره وهو يندفع نحو كالي ونيكولاس. وعندما كاد يصل إليهما، وقف نيكولاس أمامها يدافع عنها، وما لبث أن جعله يندفع عائداً إلى صاحبه. فقال: «على صاحبه أن يتحكّم به بشكل أفضل، بإمكانه أن يوقع امرأة مسنة على الأرض إذا اندفع إليها بتلك السرعة».

فقالت: «ربما ستصيح به تلك المرأة بنفس الكلمات التي يصيح بها صاحبه. أما أنا فلم أستطع أن أتعلّم الكلمات التي يصيحون بها على كلابهم».

- الكلاب تستجيب لنبرة الصوت. ألم تقتني كلباً قط؟

- لا، وأنت؟

- بلى، عندما كنت صبياً. ليس في مدريد. لا تتلاءم المدن والكلاب الكبيرة، وأنا لا أحب الكلاب الصغيرة، الكلاب المدللة.

مرا برجل مسن تبادلا معه التحية فيما راح الرجل ينظر إلى مرافق كالي بفضول. وفي المنزل، اغتسلت بسرعة قبل أن تنزل إلى المطبخ لتعد الفطور، ونزل هو بعدها مصراً على مساعدتها، ووجدت كالي أنه كفؤ للغاية بالمقارنة مع أبيها الميؤوس منه. كان يتحدث إلى أبيها حين انسلت لتنظيم الغرف، وكانت قد غسلت كل الملاءات وأكياس الوسائد بالأمس، لكنها لم تمسح الأرض أو ترتب الأسرة.

كانت تنظف الحمام المتصل بغرفة بيغي وفريدريك عندما أطل نيكولاس من الباب: «كيف يمكنني أن أساعدك؟».

أوشكت أن تجيب لا، شكراً... لكنها، لسبب لا تفهمه، قالت: «يمكنك أن ترتب الأسرّة إذا شئت».

- حسناً.

ثم اختفى. وبعد دقائق نظرت لترى ما قام به. كان قد رتّب أحد الأسرة وباشر بترتيب الآخر بمهارة تضاهي مهارة الخادمة المختصة. تركيزه على عمله منعه من أن يلاحظ نظرتها إليه.

كانت قد تركت الممسحة والدلو بالقرب من الباب. ودهشت حين رأت نيكولاس يستعملهما وكأنه أمضى حياته وهو يمسح الأرض. وسألت: «من أين تعلمت كل هذا؟».

فانتصب واقفاً ليجيبها: «لقد نشأت في منزل قديم كل ما فيه يعمل بالطرق القديمة. لكنني لا أفهم لماذا ما زلت تستعملين هذا الشيء بدلاً من ممسحة عصرية».

فقالت بمرح: «أنا أحب الطرق التقليدية».

أما الحقيقة فهي أن الخادمات اللواتي تحضرهن أمها، مازلن يستعملن طرق أمهاتهن في العمل المنزلي. سألته: «هل أستلم منك العمل؟».

- لا. سأنهي أنا هذه الغرفة بينما تبدئين أنت الغرفة الأخرى، وبهذه الطريقة ننهي العمل بشكل أسرع.

سمعت كالي رنين الهاتف فأسرعت تهبط السلم لتجيب، فأخرها ذلك لبعض الوقت. وفي غيابها أنهى نيكولاس مسح الأرض وهو يتساءل عما سيقوله أصدقاؤه وأقاربه لو رأوه يقوم بهذا العمل. وسأل نفسه عما يجعله يقوم بذلك، هل من باب التسلية؟ أم أنه يرجو بذلك أن يستأنف المواجهة التي حدثت بينهما على الشرفة وقاطعها نداء أبيها طالباً المساعدة؟

قبل أن يتوجها إلى الفندق، لبست كالي بنطلوناً أسود من الكتان

وبلوزة بيضاء قطنية، وحملت كنزة طويلة بلون القشدة ترتديها إذا ما شعرت بالبرد، كما وضعت قرطين وسواراً بلون فيروزي وعدة خواتم، وكانت قد اختارت هذه الحلي الزائفة من السوق المحلي ومن متاجر في لندن. كان نيكولاس جالساً في الردهة، يقرأ مجلة وعندما وصلت كالي شملها بنظرة تقييم ثم قال: «تبدين وكأنك تعملين في دار للأزياء».

فقالت باسمة: «شكراً، مظهرك أنت أيضاً جيد، ولكنك لا تبدو كمن يعمل في دار للأزياء».

فقال ضاحكاً وقد بدت في خديه غمازتان حركتا مشاعرها: «هذا من حسن حظي. هل أنت جاهزة للخروج؟».

- بعد أن أودع أبي.

- إنه في مكتبه.

أطلت على أبيها من الباب: «أنا خارجة يا أبي».

كان والدها يتفحص فاتورة الهاتف التي لا بد أنها وصلت في غيابها، فرفع رأسه وقد بدا عليه السرور لبقائه المسؤول الوحيد هنا.

- إلى اللقاء.

في طريقهما إلى موقف السيارات، مرا بمجموعة من النساء واقفات عند زاوية الشارع يثرثرن. وكانت كالي تعرفهن بالشكل فقط لكنها ألقت عليهن التحية وفق تقاليد القرية. عندما نظرت النساء نحوها، حيّاهن نيكولاس. وعلى الفور، قوبلت تحيته بابتسامات مهذبة وتألق ما جعل من السهل تصور مظهرهن عندما كن في سن كالي. قالت كالي بجفاء ساخر: «ستصعد أسهمي إلى ما لا نهاية».

لم يجب على هذا بل سألها: «أتختلطين كثيراً بسكان القرية؟».

- لا، ما عدا جوانيتا. الآخرون ودودون، لكن من الصعب على الأجانب أن ينشئوا أي علاقة حميمة معهم. أنا أعرف واحداً أو اثنين من

أولاد الأجانب الذين نشأوا هنا، لكن رفاقهم لا يدعونهم إلى بيوتهم كما هو الحال في إنكلترا أو أميركا. اختلاف البلاد، يعني اختلاف العادات.

- سكان القرى دوماً متعصبون.

- من الغريب أن لا يمتعض الإسبان من هذا الغزو غير العادي لبلادهم من الأميركيين والإنكليز والإسكندينافيين والألمان، ممن يدفعهم جو بلادهم في الشتاء للمجيء إلى هنا.

فقال: «الأجانب ساهموا بالرخاء في بلاد كانت لا تزال، منذ جيلين، بالغة الفقر. وما كانت إسبانيا لتستمتع بهذه البحبوحة من العيش لولا هؤلاء الداخلين إليها. فالإسبانيون واقعيون. رأوا أن من الأفضل لهم أن ينسجموا مع الداخلين على أن يهاجروا، كما اضطر كثيرون لذلك بعد حربنا الأهلية التي تركت البلاد في حالة سيئة».

كان لدى كالي مفاتيح سيارتي والديها، ولكنها فكّرت في أن سيارة أبيها تتسع لرجل في طول نيكولاس، فقررت أن تأخذها. اتجها غرباً نحو الجبال، وكانت حواسها واعية تماماً لهذا الرجل الذي يجلس بجانبها ذي الكتفين العريضتين والساقين الطويلتين. قادت السيارة ببطء وحذر أكبر مما فعلت تلك الليلة وهما يتبعان سيارة الإسعاف. فالقيادة في إسبانيا علمتها أن تكون حذرة من الاقتراب من السيارات التي يحمل فيها السائق هاتفه الخليوي بيد، ويشير أثناء الكلام، بيده الأخرى. وصلا إلى مقصدهما عند الساعة الواحدة والنصف ومع أنهما كانا مبكرين بالنسبة إلى الإسبانيين، إلا أن عدة موائد في قاعة الطعام كانت مشغولة بالأجانب الذين أنهوا المقبلات قبل الطعام وابتدأوا في تناول الطبق الأساسي.

قال لها: «هل تودّين أن نتناول كوباً من العصير على الشرفة؟».

فأومأت بالإيجاب. وقادها نيكولاس إلى الشرفة وهو يقول: «سوف أتولى قيادة السيارة خلال رحلة العودة».

في اجتماعات دار النشر كانت كالي قد تعرّفت إلى شابات عدة فائقات الحساسية تجاه أقل إشارة إلى تحكّم الرجل، وكان الاستياء سيتملكهن لقوله هذا. إنها تعلم أنهن سيحتقرنها إذا قبلت منه ذلك، لكن في الحقيقة، أعجبها أن تُرفع المسؤولية عن كتفيها، وقالت له: «حسناً، لن أجادلك في ذلك».

عندما عادا بعد ذلك بعدة ساعات، أدركت أنها لم تستمتع بوقتها مرة كما استمتعت اليوم. إن تناول الطعام في مطعم جيد لم يكن أمراً جديداً عليها، فلطالما تناولت الطعام في لندن مع زملائها. كما أنها معتادة على الطعام الجيد والخدمة الجيدة. لكنها هي الضيفة اليوم. عندما جاءت فاتورة الحساب اقترحت اقتسامها مع نيكولاس لكنه قال بحزم إنه لا يريد أن يسمع ذلك، وأحست أن كرامته ستُمس بشكل خطير إذا أصرت على الجدل. وفيما هما عائدان قالت له: «لا أتذكر متى ضحكت آخر مرة إلى هذا الحد. أنت مرافق جيد جداً».

ـ أنا مسرور لاستمتاعك. وأنا أيضاً استمتعت بوقتي، إننا منسجمان تماماً..

قال هذا وهو يمنحها تلك الابتسامة التي تجعل نبضاتها تتسارع. تمتمت موافقة، وعند ذلك فقط خطر لها أنها، منذ وصولهما، لم تفكر قط في الوضع في لندن، أو في المستقبل الكئيب. بعد ظهر هذا اليوم كان بمثابة عطلة لها من الحياة الحقيقية وهي لا تريد لهذه العطلة أن تنتهي.

عند وصولهما، وصل نزيلان آخران. لم يتناول نيكولاس وكالي العشاء تلك الليلة مع أبيها والنزيلين الجديدين. وكان نيكولاس قد استأذن في استعمال المكتب كي يشغّل جهاز الكومبيوتر. وفيما بعد

جاء إلى غرفة الطعام وتناول شطيرة سلمون.

ربما أصيب الهولندي ورفيقته بخيبة أمل وهما يريان أنهما النزيلان الوحيدان. فذهبا إلى النوم باكراً، بينما صعد السيد هيغ إلى غرفته لمشاهدة مباراة كرة قدم، وعندما تلاشى وقع خطواته، قال نيكولاس لكالي: «وأخيراً أصبحنا وحدنا. تعالي واجلسي بجانبي على الأريكة لنتابع حديثنا عن الحياة والأدب».

بدا في عينيه وميض حذّر كالي من أن في ذهنه أكثر من مجرد الحديث. وأدركت أن عليها أن تخلق عذراً تبتعد به عنه، لكنها تريد في الواقع الجلوس بقربه. اقتربت منه دون أن تستطيع مقاومة قوة جاذبيته. وكان هو قد نهض عن المقعد فأخذ بيدها يقودها إلى الأريكة. شعورها بأصابعه تلتف على أصابعها أرسل رجفة شملت جسدها بأكمله.

ـ أين نبدأ؟ هل تتابعين برنامج الفنون اليومي على الإنترنت؟

أدهشها سؤاله، فأجابت: «إنه البرنامج المفضل لدي، فأنا أحبه للغاية. أحب النظر إليه، والاطلاع على محتوياته، أحب كل شيء فيه».

ـ وأنا أحبه أيضاً. إنه أهم ما يقدمه الإنترنت، على الأقل بالنسبة للمولعين بالكتب أمثالنا.

ثم ابتسم وترك يدها وأحاطها بذراعه: «ولكن ربما علينا أن نناقش ذلك غداً، أما الليلة فأفضّل أن أعانقك».

لقد مضى وقت طويل منذ عانق أحدهم كالي، وقت طويل كادت معه أن تنسى شعورها فيما ذراعان قويتان تطوقانها. أغمضت عينيها واسترخت بين ذراعيه بينما أخذ قلبها يخفق، وهي تتقبل عناقه باستسلام. شعرت أن عناق نيكولاس يتفوق على كل ما كانت تتصوره.

لم تعرف كم دام ذلك العناق. بدا وكأنه مستمر إلى الأبد، لكن

عندما رفع رأسه أحسّت وكأنه انتهى بسرعة بالغة.

وعندما فتحت عينيها، كان ينظر إليها بحدة، وعيناه السوداوان تتألقان: «أظننا أكبر سناً من أن نمضي الوقت متعانقين على الأريكة. فلنذهب إلى مكان أكثر راحة وعزلة».

* * *

٤ ـ ذات القبعة السوداء

غالباً ما كانت كالي تتفرج على استعراض الطائرات الشراعية وهي تحلّق فوق الوادي، وأحياناً كانت واحدة منها تهوي فجأة إلى القاع. جعلها سؤال نيكولاس تشعر بأن ذلك ما حدث لها.

استجمعت شتات نفسها قدر إمكانها، وقالت: «نيكولاس، أنا آسفة... أظن أن طريقينا متضادان. رغبتي في عناقك لا تعني أنني سأتورط معك أكثر».

وعندما لم يتحرك، أضافت: «أعرف أن كثيرين يفعلون هذا، لكنني أظن أن هذا خطأ. أنا... أنا أشعر نحوك بمودة فائقة، فنحن نشترك في كثير من الصفات. لكنك لم تصل إلى هنا إلا منذ ثلاثة أيام، وهذا وقت لا يكفي لأن يحولنا من غريبين إلى عشيقين».

أثناء كلامها، كان هو قد تركها وابتعد عنها قليلاً. ثم قال بهدوء: «حسناً جداً، إذا كان هذا هو شعورك، فمن الأفضل أن نذهب إلى السرير متفرقين. لن أتمنى لك نوماً مريحاً لأنني لا أظن أنّ أياً منا سيحصل على ذلك. تصبحين على خير يا كالي».

ـ تصبح على خير.

وأخذت تنظر إليه وهو يبتعد، وهي لا تستطيع أن تصدق أنه، منذ لحظات، كان يطوقها بذراعيه. عندما توارى، سارت إلى الباب وأقفلته. كما أطفأت كل أنوار الطابق السفلي ثم صعدت إلى غرفتها.

www.elromancia.com

كانت تعلم أنها اتخذت القرار الصحيح، وأن التجاوب معه سيحطم احترامها لنفسها وينقض كل القواعد التي وضعتها لنفسها.

عندما دقت ساعة الكنيسة الثانية عشرة، كان نيكولاس لا يزال مستيقظاً، مستلقياً على ظهره في ضوء القمر، مفكراً في الفتاة التي، لو حصل منها على ما يريد، لكانت الآن مستلقية بجانبه.

الرغبة الملحة قد تراجعت الآن، وأصبح بإمكانه أن يتأمل في ما حدث بهدوء. كالي هي أول امرأة تقول له لا. ودهش وهو يجد نفسه يعجب بقوة إرادتها. كانت تريده بقدر ما يريدها، وهو واثق من ذلك. لكنها لم تفقد سيطرتها على نفسها.

كان في أعماقه يعلم أنها على صواب. أن يتحوّل من رجل غريب إلى عشيق في مدى ثلاثة أيام هو شيء سريع للغاية. ومن الواضح أن كالي كانت وضعت لنفسها مجموعة من المبادىء مقررة أن تلتصق بها مهما كانت رغباتها قوية.

في عالمه، الناس الذين يضعون لأنفسهم قواعد لحياتهم لا يحيدون عنها مهما كانت الظروف، يتناقصون على الدوام. معظم النساء الآن كالنعاج، أقنعن أنفسهن بارتداء ملابس سخيفة صممها لهن رجال لا يهمهم من الجنس الآخر سوى الاستفادة من سهولة انخداعهن. النساء ذوات الأجسام المثيرة يجعن لكي يتشبهن بنحافة عارضات الأزياء، ونساء أخريات يدفعن مبالغ مالية غير معقولة لكي تبدو شعورهن بطراز غريب شاذ، كما أن كثيرات أقنعن بأن يجمّلن أجسادهن ووجوههن بجراحة التجميل. ومن وجهة نظر الرجل، كل ذلك كان انحرافاً عن الصواب والطبيعة. ما يجعل المرأة جذابة هو شخصيتها الدافئة، وطبيعتها المرحة، وتعاطفها مع سيئي الحظ في الحياة.

وعلى حد علمه، العيب الوحيد في كالي هو عجزها عن الهرب من

أبويها، ورغبتها في ربط حياتها باحتياجاتهما بدلاً من احتياجاتها هي. حديثها أثناء الغداء أثبت أنها ذكية حريصة، وأن اهتماماتها أبعد من حدود عالم الريكاراسكا الضيق وبيئتها.

المفروض أن يكون لديها وظيفة جيدة، لا أن تضيّع وقتها في مساعدة والديها في عمل يمكنهما أن يقوما به بمفردهما لو اضطرا لذلك.

وعند هذه الفكرة، استدار إلى جانبه واستغرق في النوم.

وفي الصباح التالي توقعت كالي أن يكون تصرف نيكولاس نحوها بارداً. فما من رجل يحب أن يُرفض. إنها لا تنسى الكراهية الغاضبة التي قوبلت بها حين أنهت علاقة بشخص أقل وسامة وجمال مظهر من هذا المدريدي بكثير.

من الممكن جداً أن نيكولاس لم ترفضه امرأة قط من قبل، وهذا سيقوّي حنقه وغضبه.

وهكذا شعرت بالدهشة والارتياح وهي تجد، عندما نزل ليتناول الفطور، انه لم يظهر أي إشارة إلى نبذه، بل كان مسروراً منشرحاً كما كان قبل عناق الليلة الماضية غير المكتمل.

وبعد الفطور، خرج إلى شؤون يومه، لكنه لم يذكر لها وجهته كما أنها لم تسأله عنها.

عندما عاد نيكولاس عصر ذلك اليوم إلى النزل، قابل جوانيتا خارجة من الصيدلية، فقالت بعد أن حيته: «سمعت أنك أخذت كالي إلى الغداء في الفندق القريب من «بني موريل». أنا لم أسمع ذلك منها هي. إن لدي ابن عم يعيش في القرية، وقد رآكما تدخلان فاتصلت زوجته بي لتسألني من تكون».

فقال هازلاً: «ما أسرع سريان الأخبار هنا».

ـ الراحة تنفع كالي، فهي تتعب كثيراً.

قالت جوانيتا ذلك دون أن تذكر أين تقوم الفتاة الإنكليزية بمعظم عملها. إذا كانت لم تخبر هذا المدريدي عن عملها في لندن، فهذا أفضل. ففي رأي جوانيتا أنّ الشبان يضجرون من المرأة المستقلة للغاية، كعادتهم دوماً. فالرجل يريد امرأة تكون زوجة جيدة وأماً صالحة.

وأخذت جوانيتا في مدح فضائل كالي، وصبرها وروحها الفكهة، والطريقة التي تشتري بها الأشياء رخيصة من على طاولات السوق وتجعلها تبدو وكأنها اشترته من متجر فخم.

لكن نيكولاس، الذي كان من قبل هدفاً لسماسرة الزواج، وازداد تسلية لهذا، تساءل ماذا عسى أن تقول الطاهية لو انه أفضى إليها بأنه حاول أن يغري كالي ليجرها الى ما هو أكثر من عناق.

سألها: «متى ستعود السينورا هيغ؟».

أخبرته جوانيتا: «إنها تزور صديقتها في إنكلترا. ستعود وهي تعاني من انفلونزا كعادتها كلما ذهبت إلى هناك. ولا عجب أن كثيرين منهم يأتون إلى إسبانيا بعد أن يتقاعدوا. يكفي سوءاً أن يكبر الإنسان في السن دون أن يضطر إلى تحمّل الأجواء الممطرة الباردة لأشهر عديدة».

- الجوّ الإنكليزي ليس سيئاً دوماً، كما أن لديهم بيوتاً مريحة جداً.

- هل ذهبت إلى هناك؟

- عدة مرات. لدي أصدقاء في انكلترا.

- أحسن مكان للعيش هو إسبانيا، وهنا أحسن مناطق إسبانيا.

قالت جوانيتا هذا باقتناع فأجاب: «من المؤكد أن هناك شواهد كثيرة على ذلك».

في المساء دخل النزل إسبانيان مندوبان لقضاء ليلة واحدة وابتدأ

الرجال الثلاثة في حديث طويل سمعت كالي نتفاً منه فلاحظت أن نيكولاس لم يكد يتحدث عن نفسه أو عمله.

أمضت النهار بطوله تراجع رسائلها عبر الإنترنيت كل ساعتين، وفي كل مرة كانت تتوقع مذكرة صرف من الخدمة. ولكن رغم أن اتحاد الناشرين كان معروفاً بالقسوة في الصرف ولا يهمهم عودة الموظف من عطلته ليبلغوه بالصرف من العمل، فإن رسالة الإنترنيت التي كانت تخافها لم تصل وذهبت إلى فراشها دون أن تعلم شيئاً.

ولكن كان عليها أن تعترف لنفسها بأنها لم تكن تفكر فقط في عملها، بل نيكولاس كان يشغل معظم أفكارها، وإلى متى سيبقى هنا، وعما إذا كان نبذها نهائياً أم أنه سيحاول أن يعانقها مرة أخرى، وعما إذا كانت، بعد ستة أشهر، ستندم على رفضها له.

أول شعور تملك كالي بأن نيكولاس جاء إلى قرية الرايكاراسكا لغرض هو غير الظاهر ولم يخبرها عنه، هذا الشعور عاد إليها بعد عودتها من زيارة إلى سوق للمحاصيل في قرية أكبر.

كانت عائدة بالسيارة عندما رأت امرأة سائرة على قدميها وتحمل أكياساً كثيرة، وكانت تعرفها بالشكل ولا تعرف اسمها، فوقفت لكي توصلها معها.

بعد حديث عادي، قالت المرأة: «أظنك سمعت عن الفندق؟».

- أي فندق؟

- يدهشني أن لا تعرفي بخبره بينما الرجل المسؤول عن إنشائه ينزل عندكم. لكنني أظنه لا يحب الحديث عنه. أعني أن هذا لن يكون حسناً بالنسبة إلى عملكم، أليس كذلك؟

قالت المرأة هذا متعاطفة معها فسألتها كالي: «أين سمعت هذه الإشاعة؟».

- إنها ليست إشاعة يا عزيزتي، فقد رأوهما معاً في المنزل.. ذلك

المنزل القديم عبر الوادي. الرجل الذي يقيم عندكم، ورجل آخر هو المهندس... وهو مهندس شهير جداً. أنا لم أره بنفسي، ولكن رآه الكثيرون، وهذا حديث القرية. وسيبحثون عن أناس لاستخدامهم، وهكذا سيضر ذلك بعملكم، ولكنه سينفع أناساً آخرين.

أصغت كالي بذعر. شعرت وكأنما لكمها شخص ما على معدتها دون إنذار. وقالت: «لا يمكن أن يكون هذا حديث القرية، وإلا لسمعته جوانيتا التي تطهي لنا. من هو الرجل المفروض انه قابل ذلك المهندس الشهير هناك؟».

- إنه دييغو بيريز العجوز، إنه دائم التجوال في تلك الأنحاء. كان لدى الرجل الذي يقيم عندكم مفتاح الباب الخارجي ورآه دييغو يفتحه. لا بد أنه وكيل صاحب الملك.

كانت كالي ابتدأت تهدأ من أثر الصدمة: «ومن هو صاحب الملك؟».

- لا أدري من يملكه الآن. ولكن إذا شئت أن تعلمي عن الناس الذين كانوا يملكونه، عليك أن تسألي جدة دولورس مارتيني. انها في التسعينات ولم تعد تخرج من بيتها، لكن ذهنها ما زال صافياً كما سمعت. ومنذ زمن طويل اشتغلت في ذلك البيت.

كانت قد وصلتا الآن إلى القرية حيث نزلت المرأة شاكرة كالي. لا شك أنه لن يمضي وقت طويل حتى تطوف في القرية شائعة أخرى. وحقيقة انها، وهي التي يملك أبواها نزل «كازا رورال»، لم يكن لديها فكرة عن أن الرجل المدريدي الذي يقيم عندهم هو (حية تحت التبن). هذه الحقيقة ملأتها غضباً.

لم تكد تصبر على عودة نيكولاس لكي تتمكن من مواجهته بعمله. وفي الواقع، تملكها إغراء كبير بأن تذهب إلى غرفته وتضع كل متاعه في كيس قمامة وتلقي بها خارج الباب الخارجي مع ورقة مكتوب عليها

أنه لم يعد مرغوباً به هنا.

ثم تذكرت أنه لم يدفع الحساب بعد، وستكون أكثر حرصاً إذا هي طلبت منه الحساب قبل أن تخبره برأيها فيه.

كانت قد كتبت قائمة بحسابه لكي تعطيها له، ثم جلست تنتظره، منتصبة القامة متوترة الأعصاب، على أحد مقاعد البار المرتفعة، عندما دخل.

نزلت عن المقعد وهي تبدو هادئة بينما كانت تغلي في داخلها، ثم قالت ببرود متجاهلة تحيته الودود: «هاي... كيف حالك؟»

- مساء الخير، سمعت أنك لست هنا في إجازة، كما ظننا... وإنما أنت مشترك في إصلاح منزل عبر الوادي بغرض استعماله في عمل، هل هذا صحيح؟

كان نيكولاس قد أنزل حقيبة ظهر قبل أن يدخل المبنى، فأسندها الآن إلى كرسي ثم نظر إليها وعلى وجهه تعبير لم تستطع أن تفهمه: «نعم. هذا صحيح، لكنني لم أكن أعلم أن رجال الأعمال هم أناس سيئون. لقد أجريتم عدة إصلاحات هنا منذ وصولي».

- ذلك أمر مختلف تماماً. لا يمكنك أن تتوقع منا الترحيب بشخص يقوم بعمل يضعف أساس معيشتنا. آسفة لأن عليّ أن أطلب منك أن تغادرنا... فوراً. وهذا حسابك...

تقدم نيكولاس منها وأخذ القائمة وما زالت عيناه متعلقتين بعينيها: «لماذا مشروعي هذا يضعف أساس معيشتكم؟».

ابتدأت تفقد هدوءها: «إذا كنت لا تستطيع أن ترى ذلك، فعليك أن تفحص عقلك. فندق كبير يبعد كيلو مترين سيدمّرنا. قد يحضر هذا بعض المستخدمين لكنه حتماً لن يحضر الهدوء والسكون. ولكن ماذا يهمّك لو أن هذا الوادي خسر مكانته وأصبح خراباً كما حدث لمعظم الشواطىء؟ فأنت لست مضطراً للعيش هنا. أنت ستعود إلى مدريد

بينما نحن الذين سنعاني من النتائج».

عندما تابع تسميرها بنظراته الغامضة، أصبحت محتارة بين أن تتابع تعنيفه وبين أن تتوخّى الحكمة وتمسك لسانها.

وأخيراً قال: «مهما فعلت أنا أو لم افعل، كل المناطق القريبة من المطارات أو محطات الأوتوبيس ستتغيّر بشكل مؤثر أثناء السنوات العشر القادمة. ليس بإمكان أحد أن يغيّر هذا، وأظن عليك أن تعوديّ نفسك على ذلك».

ونظر إلى قائمة الحساب: «هل يمكنني دفع هذه بشيك؟».

ـ بالتأكيد.

أخرج محفظته من جيبه، ومنها بطاقة حسابه: «يمكنك أن تنجزي الأمر ريثما أدخل غرفتي لجمع أمتعتي».

وحمل حقيبته ثم صعد إلى غرفته.

وضعت بطاقته داخل الجهاز، وإذا بها تشعر بوخزة من عدم الارتياح لطردها له في هذا الوقت من اليوم بدلاً من أن تطلب منه المغادرة باكراً صباحاً. ومع ذلك يمكنه أن يجد بسهولة من يوصله إلى أقرب مدينة حيث يمكنه أن يجد فندقاً على الأقل.

ولأسباب شخصية، أرادته أن يغيب عن بصرها وكلما أسرع في ذلك كان أفضل.

بعد عشر دقائق، سمعته يهبط السلم.

تقدم إلى البار ووقع الشيك ثم قال: «لقد وضعت الكتابين اللذين استعرتهما في مكانهما. إذا شئت أن تتصلي بي، لأي سبب كان، فسأعطيك عنواني على الإنترنيت».

وسحب من محفظته بطاقة وضعها على المنضدة مع عشرين يورو: «نسيت أن تضعي في القائمة أجرة استعمالي الإنترنيت أثناء وجودي هنا. وأظن هذا المبلغ يكفي».

ـ إنه أكثر من اللازم.

فهز كتفيه: «يمكنك أن تضعي أية زيادة في صندوق الإحسان. وداعاً يا كالي. أنا لن أصافحك لأنني واثق من أنك لن ترغبي في أن تصافحي رجلاً تحتقرينه كما يبدو».

وابتسم ساخراً من مظهرها العدائي. ثم خرج من المنزل وكذلك من حياتها، كما كانت ترجو.

لكنها وهي تصعد إلى غرفته لتنزع أغطية السرير، ما كانت لتشعر بذلك التفاؤل لو أنها علمت أن نيكولاس لم يخرج من القرية بل طرق باب جوانيتا.

بعد أن دعته المرأة الإسبانية إلى الدخول، قال: «سنيورا، أنا أفكر في البقاء في الريكاراسكا لبعض الوقت... ولكن ليس في نزل (كازا رورال) حيث المكان جيد لكنه غير مناسب لإقامة طويلة. هل تعرفين بيتاً للإيجار في القرية أو قريباً منها؟».

بدا التفكير على جوانيتا فترة ثم قالت: «سمعت أن «لاهيغارا» للإيجار، لكنه أحد أفخر البيوت في القرية والإيجار مرتفع بالتأكيد. هذا يعتمد على ما يمكنك أن تدفع».

ـ أين هي «لاهيغارا»؟

ـ في الناحية الأخرى للقرية. وهي ملك لرجل إنكليزي يعمل في التلفزيون، وهو مشهور كما يقال. وإذا أعجبك البيت يمكنك أن تتحدث مع سنيورا دريدن. إنها أيضاً إنكليزية لكن زوجها أميركي. سآخذك إلى بيتهم لأعرفهم عليك إذا شئت.

ـ أنت بالغة الشهامة.

ـ لا إزعاج في ذلك، هل لي أن أسألك لماذا تريد أن تمضي وقتاً أطول في مثل هذه القرية الصغيرة العديمة الأهمية؟

ـ القرية ساحرة وهي تعجبني جداً.

كان نيكولاس يعلم الاستنتاج الذي ستصل جوانيتا إليه، على الأقل حتى تخبرها كالي أنها طردته.

فتح باب منزل آل دريدن رجل مسن يرتدي قميصاً قطنياً.

- سنيور دريدن، هذا الشاب كان يقيم في نزل «كازا روورال» لكنه الآن يريد أن يستأجر بيتاً ففكرت في أن «لاهيغارا» قد يناسبه. سنيور لوركا من مدريد.

تصافح الرجلان وتفحص الرجل نيكولاس بدهاء: «الأفضل أن تدخل وتتحدث إلى زوجتي. هل ستشربين معنا شيئاً يا سنيورا؟».

رغم أن الدعوة سرتها، إلا أنها اعتذرت بانشغالها.

سار الرجل بزائره إلى غرفة جلوس فسيحة جلست فيها على أريكة امرأة أصغر سناً من صاحب المنزل بعدة سنوات.

- ليونورا، هذا هو السنيور لوركا وهو يبحث عن بيت يستأجره... هذه زوجتي يا سنيور لوركا.

نهضت السيدة دريدن وحيّت نيكولاس بالإسبانية بسرور: «لدينا علم ببيت للإيجار لكنه فسيح بالنسبة إلى شخص واحد... أم أن هناك آخرين سيوافونك؟».

فقال بالإنكليزية: «من المحتمل أن يزورني بعض الأصدقاء. لكنني، أساساً، سأكون وحدي. إنني معتاد على البيوت الفسيحة».

رآهما يتبادلان نظرة خاطفة هي اتصال صامت بين شخصين عاشا مع بعضهما البعض زمناً طويلاً فأصبحا يقرآن أفكار بعضهما البعض... فأدرك أن طلاقته بالإنكليزية، وكذلك لكنته، قد طمأنتهما.

وأشارت السيدة إلى كرسي مريح بجانب أريكتها: «تفضل بالجلوس. ما الذي جاء بك إلى هذا الجزء من إسبانيا؟».

بعد نصف ساعة، كان نيكولاس يودعهما تاركاً لهما بطاقة وآخذاً

عنوان بريد صاحب البيت في الإنترنيت.

طلب تاكسي من تليفون عمومي، ثم سار إلى مقهى قريب حيث أخذ يحتسي القهوة منتظراً التاكسي لتأخذه إلى أليكانتي.

وفي غرفة جلوسها، كانت السيدة دريدن متكئة على قراءة كتاب «المناش دي غوتا» الذي كان زوجها أهداها إياه في عيد ميلادها.

- هذا ما فكرت فيه.

هتفت بذلك بانتصار وهي تشير إلى زوجها بأن يتقدم ويرى ما وجدته.

نقلت الكتاب إلى ركبتيه وأشارت إلى ما تريده أن يقرأه: «السيد نيكولاس لوركا... صاحب السعادة الكونت نيكولاس لوركا الإبن الأصغر للدوق بالتاسار».

قرأ توم دريدن المقدمة: «ربما أنت على صواب. إذا كان من النبلاء، فأنا واثق من انه لا يريد أن يذيع ذلك عنه. وإذا سمعت السيدة هيغ هذا، فستنشره على السطوح طبعاً. أما كيف أنجب ذانك الزوجان مثل تلك الابنة العاقلة الذكية فهذا ما لم أفهمه».

عادت كالي إلى لندن في يوم أحد، وعصر اليوم التالي استُدعيت إلى غرفة إدارة الشركة حيث أخبروها بأن خدمتها لم تعد مطلوبة. لم تكن الصدمة قاسية كما كانت بالنسبة إلى صديقتها نيكولا التي لم تتوقع الصرف. بعكس كالي التي كانت مستعدة لذلك.

لم تعد إلى مكتبها بل إلى البيت الصغير في تشيلسي الذي تشترك مع ديبورا الموظفة في التلفزيون بغرفة فيه وحمام بينما المنزل تملكه أوليفيا التي تشتغل بالأدب وتحتاج إلى مستأجرين لتدفع قيمة الرهن.

وتملك العطف أوليفيا وديبورا على كالي لورطتها هذه.

وأثناء الأسبوعين التاليين، تناولت كالي عدة وجبات طعام مع نيكولا وزوجها، كانت تعلم أنهما يبذلان كل ما في وسعهما

لمساعدتها على إعادة تركيز حياتها. لكن، في تلك الفترة، كان ذلك صعباً.

ذات يوم، بعد يوم من تدفق المطر، قررت أن من الأفضل أن تعود إلى الريكاراسكا لقضاء فترة، ووجدت طيراناً رخيصاً على الإنترنيت فحجزت ثم خابرت أمها لتعلمها بأنها قادمة وستستقل الأوتوبيس من محطة أليكانتي، إلى القرية.

عندما نزلت من الأوتوبيس لم تر أياً من سيارتي والديها تنتظرها. ولحسن الحظ، كان هناك حانة قريبة من محطة الأوتوبيس. دخلت وطلبت قهوة وهي تتساءل لماذا بينما هي نظامية للغاية وحريصة على المواعيد، والداها دوماً يتأخران؟

بعد ذلك بحوالى ربع ساعة، رأت سيارة أمها تقف في الموقف، فخرجت لتلاقيها. وقالت الأم: «آسفة لتأخري، لكن العمل كان كثيراً».

وعندما صعدت ابنتها إلى جانبها تبادلتا القبلات، وأمها تقول: «لم نكن، أنا وأبوك، نتوقع رؤيتك بهذه السرعة. هل كل شيء على ما يرام؟».

ـ لا. لقد فقدت عملي.

قالت هذا بلهجة عملية، لكنها اشتاقت إلى جدتها التي كان بإمكانها أن تنفجر أمامها بالبكاء والعويل.

فقالت الأم عابسة: «آه، رباه! أتظنين أنك ستبقين دون عمل مدة طويلة؟».

ـ لا أدري. الاحتمالات غير جيدة. ربما عليّ أن أقوم بعمل مختلف. يمكنني أن أراقب سوق العمل من هنا كما أراقبها من هناك. على الأقل بإمكاني هنا أن أساعدك، وهذا أفضل من أن أتفرج على المطر في لندن.

ـ ولكن ماذا عن أجرة سكنك؟ كيف يمكنك أن تدفعيها وأنت دون عمل؟

ـ أعطوني تعويضاً سخياً يمكنني أن أعيش به ستة أشهر فلا تخافي بالنسبة لهذا يا أمي. الأمر مجرد جمع شمل ولن أثقل على ميزانيتكما. أنا بحاجة فقط إلى مدة أسبوع أو اثنين لأفكر بمستقبلي.

ـ أهلاً بك للبقاء بشكل دائم إذا كانت نتيجة العمل تكفينا نحن الثلاثة، ولكنها، لسوء الحظ، لا تكفي. وعندما يبدأ الفندق الذي يبنونه على الناحية الأخرى من الوادي العمل، قد لا تكفينا، أنا وأبيك.

كانتا في منتصف الطريق إلى القرية حين قالت: «آه، كدت أنسى. جاءتك دعوة للخروج هذه الليلة. بعد اتصالك لتخبرينا بقدومك، جاءني اتصال من السيدة دريدن. إنها تقيم حفلة لأجل فنان إسباني لا يتكلم الإنكليزية، وهكذا على الضيوف أن يتحدثوا بالإسبانية. إنها وقاحة منها أن تتصل في آخر لحظة، في رأيي. لكنني قلت لها إنني سأجعلك تتصلين بها حال وصولك. أظن أحد ضيوفه تخلى عنها في آخر لحظة فتعلقت بالقشة. وإذا لم تشائي الذهاب يمكنك الاعتذار بسهولة».

ـ سافكر في ذلك.

قالت كالي هذا وقد حيّرتها هذه الدعوة. لطالما كانت السيدة دريدن ودوداً، لكنها، وزوجها، كان لهما مجتمع خاص. فلماذا يرغبان في دعوة فتاة من جيلها؟ مهما كان سبب ذلك، طالما تملكها الفضول لرؤية بيتهما من الداخل. والذهاب إلى حفلة هو أفضل من قضاء المساء قلقة على مستقبلها.

في إسبانيا، نادراً ما كانت كالي تستعمل مواد تجميل عدا عن كريم ضد أشعة الشمس وحمرة الشفاه. لكن هذا المساء، بعد أن اتصلت بالسيدة دريدن تخبرها بقبولها الدعوة، أمضت نصف ساعة في

وضع ماكياج مناسب للحفلة. ولحسن الحظ كان لديها ملابس للسهرة في خزانتها أحضرتها السنة الماضية.

وكما تنبأت، أعجبت ملابسها هذه أمها، لكنها لم تعجب أباها.

القبعة الصغيرة المزينة «بالبرق» انتزعت نوبة من الضحك من أفواه مجموعة من أولاد القرية مرت بينهم وهي خارجة من بيتها، وبعد ذلك مرت برجل عجوز يعرفها بالنظر فقط نظنها غريبة، وعندما تبادلا التحية وقف لينظر إليها وهي تمرّ، فهزت له ردفيها ساخرة. وقبل أن تنعطف إلى شارع آخر، نظرت إلى الخلف، كان الرجل العجوز ما يزال يحدّق، فلوّحت له بيدها بوقاحة.

فتحت باب آل دريدن فتاة ترتدي بلوزة بيضاء وتنورة سوداء سألتها إن كانت تحب أن تترك وشاحها لديها، ثم أشارت لها إلى السلم قائلة إن الحفلة في الطابق الأعلى.

رأت كالي في أعلى السلم باباً مفتوحاً بدت منه قاعة فسيحة مضاءة بمصابيح صغيرة. وعندما وقفت على العتبة تنظر معجبة إلى الفجوات المليئة بالكتب في الجدار، والأرائك المريحة والسجادات الشرقية الرائعة الجمال التي تنبسط على الأرض الآجرّية، جاءت مضيفتها لتستقبلها: «كم أنت رقيقة يا آنسة هيغ، إذ لبيتِ دعوتنا دون إعطائك مهلة كافية للاستعداد. واحد من ضيوفنا فقط يتكلم الإنكليزية أما الآخرون فلا. ومن الصعب جداً أن نجد أجانب يتكلمون الإسبانية بطلاقة. أريدك أن تتعرفي على بعض الضيوف».

ثم راحت تقدمها الى الضيوف الآخرين. لم تشعر كالي قط أن لقاء الغرباء مشكلة بالنسبة إليها، وقد تملكتها الدهشة والسرور عندما وجدت أن ليس كل الضيوف في سن الزوجين دريدن. أول زوجين تعرفت إليهما كانا في بداية الأربعينات، الزوج طبيب والزوجة فنانة هاوية تعرفت إلى ليونورا دريدن في معهد للرسم تابع لرسام محترف.

كانت تتحدث إليهما، وقد تناولت لتوها حبة زيتون من صينية قدّمها نادل، عندما رأت رفيقيها ينظران إلى الباب خلفها. ما جذب أنظارهما هو وصول امرأة في ثوب أحمر مشرق ويرافقها رجل قصير ممتلىء الجسم، وقد ظهر خلفه رجل آخر أطول قامة. واستغرق الأمر منها لحظة لتعرفه، فقد بدا مختلفاً ببذلته الأنيقة وقميصه الناصع وربطة عنقه الحريرية الرصينة الألوان.

بدا نيكولاس لوركا الليلة، وهو الذي كان دوماً ذا حضور مسيطر بفضل طوله وبنيته، ذلك النوع من الرجال الذي يطوف حول العالم بطائرة خاصة نفاثة، ويمضي حياته في اتخاذ القرارات.

تساءلت عما يفعله هنا، وكيف سيتصرف حين يعرف أن هذه المرأة التي تلبس قبعة هي نفسها التي طردته من بيتها منذ وقت غير طويل؟

***

٥ ـ سؤال فجواب . . . فلقاء

فيما كان تود دريدن يستقبل الزوجين اللذين وصلا لتوهما، كانت زوجته تستقبل نيكولاس لوركا. نظرت إليه كالي وهو يقبل يد مضيفته، وشعرت بغصة في حلقها. طريقته المهذبة تلك ذكرتها بالزمن الماضي حين كان الفارس يظهر تقديره للمرأة الجميلة.

عندما أدركت أن رؤيتها لنيكولاس مرة أخرى قد تجعلها تكتشف خداعه، تمالكت نفسها، مصممة على عدم الاستسلام لسحره ثانية. على أي حال، قد لا يفكر مطلقاً بأن يضيّع سدى سحره عليها هذه الليلة بعد توبيخها القاسي له، وتملكها الأمل في أن لا يحصل بينهما كثير من الاحتكاك، حتى أن من الممكن، في حفلة كبرى كهذه، أن لا يحدث بينهما اتصال على الإطلاق. كانت كالي قد استيقظت منذ السادسة صباحاً، ولم تأكل على الفطور سوى القليل، ثم تناولت الطعام الخفيف الذي يقدم في الطائرة. . كل ذلك جعلها تشعر بالجوع. وعندما طاف النادل على الضيوف بصينية فطائر ساخنة، تناولت واحدة التهمتها بلهفة ثم اختطفت أخرى قبل أن ينتقل إلى ضيف آخر. قال صوت بجانبها: «السنيورا دريدن طاهية رائعة، ولا أدري أي طعام إنكليزي مميز ستخصنا به الليلة».

التفتت كالي فرأت إسبانياً في حوالى الأربعين يبتسم لها، فقالت: «أنا لم أحضر إلى هنا من قبل. هل تقدم السيدة دريدن دوماً طعاماً

إنكليزياً مميزاً؟».

ـ كانت كذلك أثناء زياراتي السابقة.

ثم قدم الرجل نفسه: «اسمي لويس ألاري وأنا من ڤالنسيا».

ومد يده يصافحها.

ـ كالي هيغ من لندن.

فبدت عليه الدهشة: «هل أنت إنكليزية؟ ظننتك فرنسية فأنا أعلم أن لدى مضيفينا أصدقاء فرنسيون كثيرون. كيف حدث أنك تتكلمين الإسبانية بهذه الطلاقة، وترتدين ملابس أنيقة إلى هذا الحد؟».

شعرت بالتسلية لمدحه لها، فقالت: «أنا مولودة في إسبانيا. هل ستعود الليلة إلى ڤالنسيا يا سنيور ألاري؟».

ـ لا، فأنا مدعوّ على الفطور أيضاً في هذا المنزل.

أثناء حديثهما كان المجتمعون يتنقلون تدريجياً إما ليفسحوا الطريق ليمر النادل، وإما لتستطيع السيدة دريدن أن تقوم بتعريف الضيوف إلى بعضهم البعض. وفجأة وجدت كالي نفسها تحدق إلى نيكولاس في نفس الوقت الذي كان فيه هو يتفحص الغرفة. تقابلت أعينهما وللحظة شعرت وكأن كل من في الغرفة تبخر ولم يبق سواهما. لم تعد لديها فكرة عن كيفية تصرفها حينذاك. كل ما تعرفه أن نظرات نيكولاس استقرت عليها دون أي دليل على أنه عرفها، ثم تجاوزتها بعد توقف خاطف.

أيحتمل أنه لم يعرفها؟ أم انه تعمّد تجاهلها؟ وبعد هذا بالضبط قرعت ليونورا الجرس، وعندما سكت الجميع أعلنت أن العشاء جاهز في غرفة في الطابق السفلي. قال لويس ألاري: «أنا سعيد الحظ لأن مكاني جاء بجانبك. هل ننزل معاً؟».

أخذ نيكولاس ينظر إليهما وهما يغادران القاعة، وتساءل عمّن عسى أن يكون الرجل.

منذ خروجه الفجائي من كازا رورال، حاول أن لا يفكر في كالي. ولكن رغم انشغال ذهنه بأمور كثيرة بقيت صورتها تراوده، وكذلك تجاوبها المحموم مع عناقه، ثم وجهها المتهم الغاضب وهي تطلب منه مغادرة النزل. لم يكن يتوقع وجودها هنا الليلة، وللحظة، لم يعرف من هي تلك المخلوقة المتألقة الجالسة في آخر الغرفة، والتي نظرت إليه مباشرة لعدة ثوانٍ قبل أن تستدير باسمة إلى رفيقها الذي يبدو مفتوناً بها.

كان يعلم أن كالي أنيقة نوعاً ما.. ولكن، أن تبدو قمة في الإغراء والفتنة والأناقة، فهذا اكتشاف جديد.

- أماكننا هي عند المائدة الحمراء، وهي الثانية إلى اليمين. لقد أروني إياها مسبقاً.

قال لويس هذا وهو يصل مع كالي إلى أسفل السلم، وهكذا بدلاً من أن يقفا في الصف، دار بها إلى قاعة طعام واسعة تحتوي على أربع طاولات مستديرة حول كل منها ست كراسي، وكل منها بلون مختلف.

عند كل مائدة كانت هناك بطاقات تشير إلى مكان كل شخص. جاء مكان لويس إلى يمين كالي. وتملكها الذعر وهي ترى أن نيكولاس سيكون إلى يسارها، لو كانت أول القادمين لأبدلت بطاقته بسرعة مع بطاقة الشخص الذي يليه على المائدة. لكنها لن تستطيع ذلك ولويس ينظر إليها، أم لعلها تستطيع؟

ولرغبتها البالغة في أن لا تجلس بجانب نيكولاس على مدى الساعتين التاليتين، قامت بالتغيير. وإذ رأت لويس يرفع حاجبيه بفضول، قالت: «أنا أريد أن أجلس بجانب السنيور بيرميجو بشكل خاص، فقد أردت التعرف عليه منذ وقت طويل».

فسألها مازحاً: «هل يعني هذا أنك ستتركينني وحدي؟».

- كلا بالطبع، لكنك ستحتاج أحياناً إلى أن تتحدث مع جارتك

الأخرى.

وأشارت إلى المقعد الذي إلى يمينه.

- قد لا يأتي الآخرون قبل عدة دقائق، فلنجلس ونتحدث.

لم يسحب كرسيها قبل كرسيه كما يفعل نيكولاس: «أنا أتعامل مع الفنون، وأنت؟ دعيني أتكهن... هل هو عمل يتعلق بعالم الأزياء؟».

- كنت أعمل في دار نشر في لندن طوال خمس سنوات.

- في انكلترا ناشرون ممتازون، وأنت لست مع أي منهم، أليس كذلك؟

وعدّد لها أسماء ثلاثة ناشرين، فهزت رأسها نفياً: «كتابة سيرة حياة الآخرين ومذكراتهم هو مجالي».

وعندما سألها عن اسم الناشر الذي تعمل لديه ذكرت له اسم «إدموندبروك»، وفي هذه اللحظة انضم إليهما السنيور بيرميجو، وهو رجل في أواخر الخمسينات تصحبه زوجته. وتملكتها الدهشة وهي تجد هذين الزوجين البليدين في ضيافة آل دريدن. المرأة التالية في الوصول كانت المرأة صاحبة الكرسي الذي بجانب لويس، وقد بدت أكثر حيوية من الزوجين بيرميجو، وقدمت نفسها على أنها غابرييلا، وهي تعمل في العلاج الطبيعي، كما تقوم بالرسم في وقت فراغها. آخر من جاء إلى المائدة هو نيكولاس. وعندما انحنى احتراماً للمرأتين اللتين تجلسان إلى جانبيه، تمتم لويس في أذن كالي: «والآن، إذا كنت تريدينه بجانبك يمكنني أن أتفهم ذلك».

ثم قال بصوت مرتفع للقادم الشاب: «مرحباً بك في مجموعتنا، يا سنيور. ستجد نفسك مع عاملة في العلاج الطبيعي، ومحررة ناشرة في لندن، كما أنني أتعامل مع الفنون. علينا أن نعلم بعد ذلك ما الذي يتولاه السنيور بيرميجو».

فقال الرجل بلهجة خطيرة: «أنا محامي آل دريدن».

فقال لويس بوقار: «تشرفنا، وأنت؟».

قال هذا ناظراً إلى نيكولاس. سمّرت كالي نظراتها على الأزهار وسط المائدة، ولكن حين سمعته يجيب بأنه يعمل في تزويد شبكات الكومبيوتر بالخدمات المتطورة لم تستطع أن تمنع نفسها من إلقاء نظرة مجفلة عليه. كانت تتوقع منه أن يقول إنه يعمل إما في سمسرة العقارات أو في إنشاء الفنادق.

سأله المحامي مقطباً: «هل لذلك علاقة بالإنترنيت؟».

- إنها الوسائل التي تسمح لمستخدم الكومبيوتر بالاتصال بالشبكة العالمية. هناك كثير من هذه الخدمات حول العالم، لكننا الأفضل في إسبانيا.

فقال السنيور بيرميجو: «أظن أنّ الوقت قد حان لكي يضعوكم تحت السيطرة. بدون نظام كاف..».

واستمر في حديثه خلال تناولهم أول نوع من الطعام وهو سلطة السلمون.

- وهكذا، ما رأيك؟

سأله المحامي بعد أن كبحت شهيته أخيراً قدرته على الخطابة. فأجاب نيكولاس بلطف: «لا أوافقك الرأي تماماً. أنا شخصياً أعتقد أن الإنترنت هو أفضل أمل للعالم في التفاهم والتسامح. ولكن ليس إذا سيطر عليه السياسيون ورجال القانون».

فقالت غابرييلا بحرارة: «وأنا أوافقك، إنه أداة رائعة للإبداع».

فسأل نيكولاس وهو ينظر إلى كالي: «ما رأيك أنت، يا سنيوريتا؟ أظن أن دار النشر التي تعملين فيها لديها شبكة أليس كذلك؟».

- طبعاً، إنها أداة هامة للغاية لترويج كتب المؤلفين المتعاقدين معنا.

استمر الحديث خلال العشاء، بينما المحامي يرفض أن يتأثر بآراء الآخرين. وتمتم لويس لكالي: «حان الوقت لتغير الموضوع، أليس كذلك؟».

نظر نيكولاس إلى الرجل وهو يهمس في أذنها، وفكر في أن فصاحته هي أشبه بقرقعة سيارة مستعملة. وما لبثت كراهيته البالغة لهذا الرجل الذي لا يعرفه أن أدهشته. كما دهش لاكتشافه أن كالي هي ناشرة، رغم أن هذه الصفة قد تكون مطاطة فهي تعني أي شيء بدءاً من محررة إلى ناشرة إلى الشخص الذي يتولى التسويق... إنما حقيقة أنّ لديها وظيفة وليست تابعة لأبويها كما كان يظن، هو خبر جيد. ولكن، لماذا لم تخبره بذلك قبل الآن؟ وما هو السبب الذي جعلها تسكت؟ فعادة ما يتحدث الناس ذوي العمل الجيد عن عملهم. وحديثهما عن الكتب أعطاها فرصاً كثيرة للتحدث عن اشتراكها في نشرها.

من مكانه القريب منها هذا، كانت تبدو أكثر فتنة مما بدت له من آخر الغرفة في الطابق الأعلى. رغم أنه تمنى لو كان جالساً مكان ذلك المحامي المغرور...

آه، لو كانا على وفاق يسمح له بأن يدعوها للعودة معه إلى بيته ليشربا القهوة معاً بعد انتهاء الحفلة!

منذ رأى كالي للمرة الأولى، جذبته إليها بشكل غريب. كان متأكداً أن ذلك الشعور سيتلاشى في النهاية وأحسن طريقة لذلك هي أن يتقرب منها. لكنها عادت فاحتقرته، وهو لم يوضح لها أن الإشاعة عن الفندق ليست صحيحة. وأدرك، متأخراً، انه أخطأ بذلك. لكنه شعر بالانزعاج لأنها لم تكن تشعر نحوه بالمودة إلى حد يجعلها تبرئه لعدم وجود الأدلة.

لو علم حينذاك أنها تعمل كناشرة، ربما كان سيشرح لها الأمر.

لكنه كان يظن، حينذاك، أنها لا تملك ما يكفي من الاتزان ما يجعلها تستقل بحياتها، وهكذا شعر بأن ذلك الانفصال النهائي بينهما ربما هو للأفضل. إنها لم تثق به، فلم يثق بها في المقابل.

أما السؤال الذي يراوده الآن فهو ما إذا كان عليه أن يقنعها. لكن، رغم أنه لم يكن ينظر إليها، فمجرد أنه لا يفصلهما عن بعضهما البعض أكثر من مترين، فهو يكاد يفقد السيطرة على نفسه. لكي يبدو مصغياً إلى الحديث الذي يدور بين المرأتين إلى جانبيه، أغلق ذلك الجانب الخاص من ذهنه، ثم أخذ يستوعب ما كانتا تقولانه.

لم تستطع كالي تجاوز الصدمة التي تملكتها إثر جلوسها في مواجهة نيكولاس إلا بعد أن ابتدأوا في تناول النوع الرئيسي من الطعام.

قالت غابرييلا: «إعداد الطعام لأربعة وعشرين شخصاً يملؤني ذعراً. لكن ليونورا تستمتع بذلك. إن لها طاقة عجيبة».

فقال لويس: «الناس المبدعون يبرعون عادة في أكثر من مجال».

ثم نظر إلى الطعام في صحنه وسأل كالي: «هذا الطعام مكوّن من اللحم والبرقوق المجفف، أي ناحية من إنكلترا تشتهر بإعداده؟».

فأجابت: «آسفة لأنني لا أعلم.. أنا أعرف عن الطعام الإسباني أكثر مما أعرف عن الإنكليزي».

فسألها نيكولاس: «ألا تأخذين المؤلفين الذين تتعاملين معهم إلى أحسن المطاعم في لندن؟».

ـ المؤلفون المشهورون عادة يُؤخذون إلى المطاعم الفخمة، أما الأقل شهرة فعليهم أن يعتادوا على ضيافة أكثر تواضعاً.

والتفتت إلى لويس: «أظن أن الأمر نفسه يحدث في دنيا الفنون؟».

ـ حتماً، فأنا لا آخذ الفنانين إلى المطاعم الفخمة إلا إذا كانت أعمالهم تعود علينا بمبالغ عالية. ولكن يسرني أن آخذك إلى مطعم

منها، في المرة التالية التي تحبين فيها أن تزوري ڤالنسيا. متى تعودين إلى إنكلترا؟

ـ وصلت اليوم فقط.

ولكي تتجنب إلزام نفسها بموعد معه، التفتت إلى المحامي: «هل تذهب إلى ڤالنسيا كثيراً، يا سنيور بيرميجو؟».

ـ قليلاً جداً، حركة السير تزداد سوءاً كل عام، سواء في ڤالنسيا أو في أليكانتي.

فقال نيكولاس: «ذهبت إلى أليكانتي مؤخراً وهي مدينة جميلة، لكنني أعيش في مدريد رغم أنني حالياً مستقر هنا في الريكاراسكا. لقد ساعدتني السنيورا دريدن لأتصل بصاحب بيت للإيجار. وقد استأجرته لثلاثة أشهر، بمكنني تمديدها عند الضرورة».

فسأله لويس: «وما الذي جاء بك إلى الريكاراسكا؟».

ـ مشروع عمل في هذه المنطقة، لكنني لا أستطيع في هذه المرحلة، أن أكشف عنه. وهو ليس فندقاً كما سرت الشائعات.

قال هذا وهو يرمق كالي بومضة ساخرة. فشعرت بوجهها يحمر وقالت: «أخشى أن ترى المكان هنا بالغ الهدوء والكآبة بالمقارنة مع مدريد».

ـ وهل ترينه أنت كئيباً بالمقارنة مع لندن؟

ـ لم أمكث ثلاثة أشهر هنا قط. عادة ما أمكث هنا أسبوعاً أو أسبوعين.

ولتتجنب مزيداً من الأسئلة، التفتت إلى لويس: «هل ولدت في ڤالنسيا؟ وهل عشت دوماً هناك؟».

ـ أنا نشأت في ساغونتو، إلى الشمال قليلاً من ڤالنسيا.

بعد الانتهاء من تناول الطبق الرئيسي من الطعام، وقبل تقديم الحلوى، نهض تود دريدن وأخذ يقرع بملعقته على كأسه ليسترعي

انتباه الحضور، ثم طلب من كل الرجال الموجودين في الغرفة أن يغيروا أمكنتهم مع الرجال الذين إلى يسارهم.

- نحن نفعل هذا دوماً في حفلاتنا، فذلك يمنح جميع النساء الجالسات إلى موائدكم الفرصة.

هذا التغيير سمح لنيكولاس بالجلوس إلى يمين كالي فيما أصبح لويس إلى يسارها. وبعد دقائق طلب المضيف من محاميه، الانتقال إلى المائدة الأخرى وبذلك يتمكن تود دريدن من الجلوس بين السنيورا بيرميجو وغابرييلا. بدا دريدن رفيقاً أحسن بكثير من بيرميجو، حتى الزوجة أصبحت أقل صرامة وهي تجلس بجانب الأميركي المحبّ للمزاح.

كانت الحلوى عبارة عن فطائر التين مع آيس كريم المشمش الذي صنع في البيت. فقال لهم: «هذا من صنع زوجتي. يمكنكم أن تروا كم يصعب عليّ الاحتفاظ برشاقتي، وأنا متزوج من تلك الطاهية المتفوّقة».

عندما ابتدأ الآخرون يتحدثون عن الحلوى، التفت نيكولاس إلى كالي: «لماذا لم تخبريني بأنك تعملين في النشر؟».

- عندما أكون في عطلة، لا أحب أن أتحدث عن حياتي العملية.

فقال بجفاء: «كنت تعملين معظم الوقت، ففهمت أنك تعيشين في الريكاراسكا».

- أحقاً؟ يدهشني أنك لم تدرك أن عمل أبويّ لا يمكنه أن يعيل ثلاثة أشخاص، حتى لو رضي شخص في سني بالمكوث في مثل هذا المكان الصغير. ربما لم تفكر في الأمر بما يكفي.

قالت هذا ببرودة ولهجة أقرب إلى العداء. لم تجلس كالي قريبة منه بهذا الشكل منذ عانقها تلك الليلة على الأريكة. كان إحساسها بقرب جسده الرياضي القوي حاداً للغاية، وهو داخل هذه البذلة

الأنيقة، وكتفاه العريضتان قريبتان من كتفيها. تذكرت إحساسها بدفء عناقه، بينما كل ما تريد أن تفكر فيه هو مذاق التين.

- في أي مجال من مجالات النشر تعملين؟

لم تجد أمامها خياراً سوى أن تخبره بكذبة بيضاء: «إنني محررة الأدب الخيالي في دار نشر «إدموند وبروك». ربما لم تسمع عنهما قط. إنهما ليسا من كبار الناشرين».

- الكبير لا يعني الأفضل بالضرورة. بعض أصغر الناشرين أخرجوا أروع الكتب. كيف اشتغلت بالنشر؟

لم تكن تريد أن تتحدث معه في هذا الموضوع، لكنها لم تستطع أن تتجنب السؤال: «درست النشر بعد تخرجي وتدربت في دار «إدموند وبروك» وفي نهاية الدراسة وظفوني كمساعدة في قسم التحرير».

- وبقيت معهم منذ ذلك الحين؟

فأومأت: «وكيف اتخذت أنت عملك في إعداد شبكات الانترنت؟».

- كنت مراهقاً هاوياً للكومبيوتر. ثم ذهبت إلى الجامعة في أميركا، وأمضيت بعض الوقت في «سيليكون ڤالي». وخطر ببالي أن العمل في شبكات الإنترنت هو أساسي في كل عمل. وكان للناس الذين عرفتهم في إسبانيا الفكرة نفسها، فأنشأنا شركتنا حين لم يكن هناك منافسة كما هو الحال الآن. واستطعنا أن نحتكر القمة في الكفاءة في هذا المضمار في إسبانيا.

- فهمت.

قالت هذا بأدب، وما فهمته، قبل كل شيء، هو أن لا بد أن نيكولاس قد كوّن ثروة كبيرة لم يكن الرجل يستطيع تكوينها في الماضي قبل أن يبلغ الأربعين أو الخمسين من العمر، وأكثر الناس لا يستطيعون ذلك أبداً. ولكن، هذه الأيام، غدا رجال في العشرينات

والثلاثينات أثرياء لأنهم تمكنوا من الاستفادة من الإمكانيات التي توفرت في مجال الاتصالات، وتملكها الارتياح عندما سألها لويس في أي ناحية من لندن تسكن.

- في تشيلسي. إنها حي الفنانين في المدينة. وما زال هناك بيوت كثيرة تحتوي على استوديوهات بنوافذ مستطيلة.

فقال: «أصبح ذلك الحي راقياً وغالياً. هل لديك فيه بيت أو شقة؟».

- أبداً. لدي غرفة صغيرة مشتركة مع فتاة أخرى.

قالت هذا وهي تفكر أن ذلك قد لا يدوم فترة طويلة. وقال لويس: «من الأفضل أن يعيش المرء في وسط المدينة من أن يعيش في الضواحي. وأنا محظوظ لأنني أملك شقة في القسم القديم من مدينة فالنسيا».

ومال إلى الأمام يخاطب نيكولاس: «هل تسكن في وسط مدريد؟».

فأجاب نيكولاس باختصار: «نعم».

حدست كالي بأن نيكولاس يعيش في حي لا يقيم فيه سوى الأثرياء، ومع ذلك لا تراه يزهو بنجاحه كما يزهو لويس بساعته ذات الإطار الذهبي، وخاتمه الذهبي العريض.

عندما رُفعت أطباق الحلوى، قُدمت القهوة مع صحون حلوى الشوكولا التي لا يمكن مقاومتها. تملك كالي الارتياح عندما أمضى السيد دريدن الوقت في سرد نوادر مسلية حدثت له في أيامه الأولى في إسبانيا. ولهذا لم تكن مضطرة إلى التعرض لأسئلة نيكولاس. ولكن، عندما أخذ الإثنان يضحكان، ضحكته العميقة الخافتة أرسلت رجفة في كيانها. حتى رنين صوته وهو يتكلم قد أثّر في حواسها بالرغم منها، خصوصاً عندما يتكلم لغته فيلثغ بحرف السين.

ما لبث ضيوف مائدة ليونورا أن نهضوا وغادروا القاعة. فقال زوجها: «فلنعد إلى الطابق الأعلى. فإذا شاءت السيدات أن يصلحن تبرجهن، يمكنهن استعمال غرفة زوجتي، إنها إلى اليمين عند أعلى السلم».

تساءلت كالي عما إذا كان الزوجان دريدن ينامان في غرفتين منفصلتين. ولكن عندما التحقت هي وغابرييلا بمضيفتهما والنساء الأخريات، أنباها حجم السرير والكتب المكومة على منضدتي السرير من الجانبين، أن قوله (غرفة زوجتي) هو مجرد كلام. من المؤكد أن الزوجين دريدن تركا انطباعاً بأنهما يستمتعان بعلاقة أكثر حرارة من تلك التي تسود بين والديها. ما إن سنحت لها فرصة لتتحدث إلى مضيفتها، قالت: «أرجو أن لا يكون لديك مانع، يا سيدة دريدن، إذا غادرت مبكرة، فقد استيقظت قبل السادسة صباحاً. إنها حفلة جميلة، لكنني قد أتعب قبل منتصف الليل».

- طبعاً يا عزيزتي يمكنك ذلك. كان لطفاً بالغاً منك أن تأتي.

وخفضت صوتها وقالت بالإنكليزية: «أنا أحب كثيراً أصدقائي الإسبان. ولكنهم يحبون السهر طوال الليل. أنا وتود سنكون في غاية الإرهاق في الصباح. كنا ذات يوم نرقص حتى الصباح، ولكن ليس الآن».

ثم عادت تقول بالإنكليزية: «أتريدينني أن أطلب من نيكولاس لوركا أن يسير معك حتى بيتك؟ أنا واثقة من أن هذا يسرّه».

- آه، لا.. لا تفعلي هذا، أرجوك.

وإذ أدركت أن لهجتها كانت حاسمة، قالت: «البيت قريب، وليس هناك من يمكن أن يترصدني بسوء، والحمد لله».

نظرت ليونورا إليها هازلة: «لا، القرية آمنة تماماً. ولكن أن يوصلك إلى بيتك رجل ذو مظهر ووسامة فذلك شيء سار دوماً، أليس

كذلك؟ أم أنك أقل تأثراً به مني أنا؟».

فقالت كالي بأدب: «بل يبدو حسناً للغاية، لكنني حقاً لا أريد مرافقاً، شكراً. هل تلك اللوحة هي صورة زوجك؟..».

قالت هذا مشيرة إلى لوحة مرسومة على منضدة الزينة.

ـ نعم، إنها صورة تود عندما كان في الخامسة والعشرين. كانت تلك أول محاولة لي في رسم الوجوه، ولم تكن عادلة بالنسبة إليه في الحقيقة. في ذلك السن كان وسيماً للغاية، وهو، في عيني، ما زال كذلك. ها هو الحمام أصبح خالياً. هل تريدين أن تستعمليه؟.

قبل أن تغادر كالي غرفة النوم، رأت أن وشاحها على السرير مع غيره من الأوشحة. وبعد ذلك بنصف ساعة، بعد أن خرجت من غرفة الجلوس بحذر، استعادته ثم هبطت إلى الطابق السفلي وخرجت من المنزل. سارت إلى البيت في الشوارع الخالية من الإضاءة وأدركت أن القرية، لم تعد جنة هادئة تريحها من ضغط الحياة في لندن. فثمة ضغط من نوع آخر هنا هو أصعب من حزنها على وظيفتها. وذلك بسبب وجود نيكولاس في القرية.

وفي اليوم التالي، حالما أنهى آل هيغ الفطور، دق جرس الباب. وحيث أن والديها كانا في الطابق الأعلى يرتديان ملابس النهار، ذهبت كالي إلى الباب تفتحه. ظنت، للحظة، أن الطارق قد يكون نيكولاس. فتحت الباب وهي تتمنى لو أنها وضعت أحمر الشفاه، وإذا بمزيج من الارتياح وخيبة الأمل يتملكها وهي ترى لويس واقفاً في الخارج.

قال: «صباح الخير، أريد أن أحدثك قليلاً قبل أن أرحل».

فقالت باسمة: «صباح الخير. يدهشني أن عرفتني في ملابسي اليومية. تفضل».

ـ تبدين بنفس فتنتك وأنت في ملابس الحفلة.

فضحكت: «هل أقدم لك فنجان قهوة؟».

ـ لا، شكراً، أنهيت فطوري لتوّي. يا له من منزل قديم ممتع.

ورفع بصره إلى السقف المغطى بألواح خشبية، وإلى الأقواس الحجرية التراثية: «عليك أن تعطيني نسخة من كرّاس دار النشر. قد أرسل إليك بعض الزبائن».

ـ شكراً، هاك.

وناولته نسخة من إعلان كانت قد صممته وطبعته بنفسها. ثم أشارت إلى مقاعد مريحة: «تفضل بالجلوس».

قال: «بما أنني غير مستعجل لمغادرة القرية، أتساءل إن كان بإمكانك أن تخرجي معي إلى الغداء اليوم..».

ـ شكراً، لكن والديّ استغلا فرصة وجودي هنا، وقررا قضاء النهار في الخارج، وعليّ أن أبقى هنا.

ـ أنا متفهم.

ونظر إليها مفكراً: «أنا متفهم في الواقع أكثر مما كنت في الليلة الماضية. عندما غيرت بطاقتي المكانين، لم يكن ذلك لأنك تريدين الجلوس بجانب ذلك المضحك بيرميجو، ولكن لأنك لا تريدين أن تجلسي بجانب نيكولاس لوركا. هل كلامي صحيح؟».

ـ ما الذي جعلك تظن ذلك؟

ـ بدا واضحاً لي، أن هناك توتراً بينكما. فمن الواضح أنه منجذب إليك، ولكن يبدو أن ذلك الانجذاب متبادل. وهذا مدهش نوعاً ما باعتبار أن معظم النساء يمنحنه عشرة على عشرة.

ـ لديك مخيلة خصبة للغاية. ربما كان عليك أن تكتب حكايات خيالية بدلاً من عملك الحالي.

قالت هذا بمرح، وعندما لم يجب، قالت: «هل فكرت أنني قد أكون منيعة إزاء سحر السيد لوركا لأن لديّ رفيقاً في لندن؟».

ـ لو أن لديك رفيقاً، لكان معك في هذه الإجازة. ليس ثمة رجل

عاقل بسمح بأن تغيبي عن نظره.

انفجرت كالي ضاحكة: «أظن أن الأثرياء الذين يشجعون معرضك الفني يبتهجون بتزلفك هذا. أنت لا تتوقع مني حقاً أن أصدق ذلك».

قال متابعاً حديثه: «بل صدقي. أنت جميلة جداً. لو كنت في سن لوركا. كم عمره..؟ ثلاثون؟».

- أربعة وثلاثون حسب بطاقة هويته. لقد أقام عندنا ليالٍ عدة.

- لطّخ صفحته بطريقة ما؟

- ما دمت تسأل.. نعم، هذا ما حصل.

- يمكنني أن أخمّن ما حدث. كنت أنت لطيفة معه فظن ذلك تشجيعاً له ليقدم على خطوة غير مرغوبة.

فقالت بحزم: «كلا، ليس هذا هو السبب، سمعت إشاعة تقول إنه سيحوّل منزلاً مهجوراً في الوادي إلى فندق. فغضبت وطلبت منه أن يرحل. أنت سمعته يقول على المائدة إن مشروعه ليس بناء فندق. لكنني أظنه شيئاً يماثله في إفساد جوّ الوادي. وإن كنت لا أستطيع أن أمنعه إلا أنني لست مضطرة إلى أن أكون مهذبة معه... إلاّ في بيوت الآخرين».

- فهمت. لماذا لا تسألينه عن مشروعه؟ وإذا كان ذلك المشروع يشكل خطراً على الحياة هنا يمكنك أن تؤثري على مختلف الدوائر المسؤولة عن مثل هذه الأمور لتوقفه. لديّ صديق في الحكومة وقد يمكنني أن أوجهك نحو اتجاه مفيد. دعيني أعطيك بطاقتي.

ثم أخرج محفظته الثمينة وسحب منها بطاقة فاخرة النوع: «إذا كان بإمكاني أن أساعدك بأي طريقة...».

- شكراً. أنت بالغ اللطف، لكنني أظن أن نيكولاس لديه أيضاً اتصالات على أعلى المستويات.

وفي هذه اللحظة نزل والداها إلى الطابق السفلي. وبعد التعارف خرج لويس. وبعد ذلك قالت أمها: «إنه أكبر منك بكثير. وعلى كل حال، ستكونين حمقاء إذا تزوجت إسبانياً. رأيت كثيراً من الزيجات المختلطة. وهي ليست ناجحة على الإطلاق».

- أمي، لقد جاء ليأخذ مني كراس إعلانات، لا لكي يقيم علاقة معي».

فقالت الأم: «من الواضح انه مفتون بك».

- إنه فقط سلوك المتعاملين بالفنون. وهو لا يعني شيئاً.

ونظرت كالي إلى ساعتها: «من الأفضل أن تذهبي».

سرها أن تبقى وحدها في البيت. وفيما بعد خرجت تتمشى على طريق بجانب نهر جاف، يبقى معظم السنة ممتلئاً بالأعشاب ومحاطاً بأزهار الدفلى. وعندما عادت، سارت مباشرة لتتفحص بريدها الالكتروني، آملة أن تجد هناك أخباراً عن الوظائف. آخر رسالة وصلتها كانت من نيكولاس لوركا، وموضوع الرسالة هي: إذا كنت تريدين الحقيقة... ففتحت كالي الرسالة وقرأت: تعالي لنشرب شيئاً هذا المساء وأنا سأوضح لك ما هي حقيقة المشروع.

نيكولاس.

قرأت كالي بقية البريد، وكتبت جواباً لرسالتين، ثم عادت إلى رسالته. جلست تحدق الكلمات، مقلبة الأمر في ذهنها... هل تجيبه بأنها مشغولة هذا المساء، لكنها تحب أن تسمع عن المشروع في وقت آخر؟ إلا أنها أدركت أنها لن تستطيع أن تكبح فضولها بالنسبة إلى الأمرين: مشروعه، والبيت الذي استأجره. ضغطت زر الإجابة، وكتبت: «لا بأس.. متى؟».

غسلت إجاصة كبيرة وبعض العنب ثم قطعت شريحة كبيرة من رغيف خبز كانت قد اشترته من الفرن وملأته بسمك الرنكة المدخّن.

ثم حملت غداءها إلى الشرفة وجلست تتناوله.

وفيما بعد. وجدت جواب نيكولاس: «السادسة والنصف».

***

٦ ـ قلبي.. ليس ملكي

في طريقها إلى لاهيغارا أسقطت كالي رسالة شكر في صندوق البريد المثبت إلى الجدار خارج باب منزل آل دريدن. كان لدى جدتها مفاهيم قديمة الطراز أرادت كالي أن تسير عليها احتراماً لذكراها، ومنها أن ترسل رسالة شكر لأجل الضيافة بدلاً من الاتصال هاتفياً فقط.

كانت كالي قد وضعت على وجهها زينة خفيفة وارتدت ملابس بسيطة مؤلفة من بنطلون جينز وبلوزة خضراء قطنية مع كنزة كحلية ألقتها فوق كتفيها إتقاء لبرودة الجوّ عند عودتها إلى البيت. ذلك أنه رغم حرارة الجو في النهار، فالحرارة تنخفض بشكل حاد بعد الغروب.

ضغطت كالي جرس الباب، وما هي إلا لحظات حتى سمعت صوت خطوات تهبط السلم بسرعة، ثم فتح نيكولاس الباب ليتراجع بعد ذلك مفسحاً لها المجال لتدخل. وعندما دخلت، أغلق الباب ثم مدّ يده مصافحاً.

ضغط راحته الخشنة على يدها، فأشعلت أصابعه فيها أحاسيس ما كانت تشعر بها عادة في ظروف كهذه. قال وهو يفتح باباً داخلياً ويشير إليها بالدخول: «مرحباً بك في بيتي. إنه يبدو مقفراً قليلاً في الوقت الحالي، لأن أصحابه خزنوا أثمن ما لديهم من مقتنيات في غرفة في

المنزل الصغير الذي اعتادت السيدة فيلدينغ أن تعيش فيه. لكنني طلبت إرسال بعض مقتنياتي إليّ لملء الفراغات».

وأشار إلى المكان الفارغ فوق المدفأة حيث وضع مسمارا ن كبيران ليسندا لوحة كبيرة.

- هل يمكنني أن أقدم إليك العصير؟

- شكراً لك.

- فهمت أنك تركت الحفلة أمس باكراً؟

- أمضيت بالأمس نهاراً شاقاً. متى خرجت أنت؟

- بعد منتصف الليل.

انعطف حول زاوية الغرفة التي تتخذ شكل حرف (ل) تاركاً كالي في غرفة الجلوس المريحة الأثاث التي تؤدي إلى غرفة الطعام. وافترضت أن المطبخ يقع من تلك الناحية بعيداً عن مرمى البصر.

كان ضوء النهار لا يزال كافياً لترى الحديقة الفسيحة خلف المنزل، فألقت نظرة إلى الأشجار المصفرة الأوراق. وسرعان ما عاد نيكولاس حاملاً كوبي عصير: «أين تحبين أن تجلسي؟».

- المكان هنا جميل.

قالت هذا منتقلة إلى كرسي بجانب الأريكة التي كانت تجلس عليها. لقد جلست مع نيكولاس على أريكة من قبل، وهي لا تريد ما يذكرها بتلك المناسبة.

وضع لها كأسها بجانبها، ثم سار بكأسه إلى كرسي يبعد عنها مترين. ثم عاد فتوارى مرة أخرى، ليعود بصحنين: «إنها سلطة فواكه، وهذا كل ما استطيع تقديمه. غداً سأذهب إلى السوبر ماركت لشراء ما يملأ الثلاجة».

كان نيكولاس يرتدي ثياباً عادية جداً، وحذاء بنياً مصقولاً مع جوربين بلون التبن. جلس واضعاً ساقاً فوق الأخرى، ثم قال:

«وهكذا، اجتمعنا مرة أخرى لنصل ما انقطع بيننا فجأة بسبب إشاعة مغلوطة. أتصدقين دوماً أسوأ الأشياء عن الناس؟»

- ليس دوماً. لكن الأدلة ضدك بدت لي قاطعة. منحتك فرصة توضح فيها الأمر... فلم تفعل.

- ربما كنت أرجو أن تكون معرفتك بي كافية لكي تتأكدي من أنني لا يمكن أن أفعل شيئاً سيئاً لدرجة خطيرة. أم أن اقتراحي عليك بالدخول معي الى غرفتي حكم عليّ بالشقاء الأبدي؟

فقالت شاعرة بوجهها يتوهج احمراراً: «لو أن ذلك حكم عليك بالشقاء إلى الأبد، لما رأيتني هنا. أليس كذلك؟».

وفجأة، شعرت بأن هذه الجملة الأخيرة قابلة لإساءة التفسير، فأسرعت تقول: «وسبب وجودي هنا هو أن أعلم ما هو مشروعك».

أخذ جرعة من كأسه ثم أعاده إلى المنضدة: «هل سمعت عن جامعة وست دين؟».

- إنها مركز التعليم المهني في مكان ما من جنوب انكلترا، أليس كذلك؟

- هذا صحيح. إحدى قريباتي الإنكليزيات وهي غاية في الكفاءة تعمل هناك. وست دين بيت قديم رائع الجمال ذو حدائق بديعة وأرض فسيحة للزائرين الذين يأتون للتفرج. وكما تقول قريبتي، هو مكان ينعش الأرواح. كما يعلّم مختلف أنواع الحرف.

- هل هذا ما تخطط لإنشائه هنا؟ مركز لتعليم الحِرَف؟

- مركز ولكن ليس للحرف. فالمنزل عند الوادي لا يُقارن بوست دين. إنه أصغر، وليس حوله أرض، كما أن ليس هناك متبرعون متنوّرون ثقافياً مثل «إدوارد جايمس» صاحب «وست دين» لكي يوصي بثروته لتمويل هذا المشروع. كل المال الذي لدي هو مالي الذي جمعته في هذه المرحلة من حياتي. ولا أريد أن أتبرع به الآن، وربما

بعد خمسين عاماً..

- أي نوع من المراكز فكرت فيه؟

- مركز لتنفيذ مشاريع جانبية تتصل باهتماماتي الحالية.

- قلت الليلة الماضية إنك تعمل في شبكات الإنترنت.

لم تفهم مضمون كلامه. فهي لم تر صلة بين التقنيات العالية التي يشترك بها وادٍ ناءٍ حيث تسهيلات الإنترنت هي حلم بعيد. فأجابها باسماً: «وهذا صحيح، فأنا الرئيس المنفذ ولهذا أعمل أكثر من أي شخص آخر».

وكالعادة، هزّت ابتسامته اتزانها النفسي. وسألته: «كيف أمكنك إذن أن تجد وقت فراغ تمكث فيه هنا؟».

- الإنترنت ألغى كل المسافات، فأنا على اتصال دائم مع زملائي أينما كنت. أنت لا تتصلين مع مكتبك لأنك في عطلة، ولكن بإمكانك ذلك إذا شئت. عندما تصل التسهيلات المطلوبة إلى الكمال، وتصبح موجودة في كل مقر عمل، سيكون بإمكان كل الناس العمل من حيث يشاؤون.

لم تقتنع كالي، لكنها لم تقل هذا. فمع أنها تستعمل الإنترنت، لكن هذه هي حدود معرفتها بالتكنولوجيا.

نهض نيكولاس وأحضر علبة بوشار من المطبخ، وعندما حاول أن يفرغها في صحنها، قالت: «لا أريد المزيد. شكراً».

- ألا تحبينها، أم لأجل السعرات الحرارية التي تحتوي عليها؟

- بل هي لذيذة، لكنني لا أخشى زيادة الوزن.

- وأنا أحبها، وهذا هو السبب الذي يجعلني أركض كل صباح. لكي أمحو خطايا الليلة السابقة.

- مهما كانت خطايا الشراهة التي تقترفها، لم تبدأ آثارها في الظهور بعد.

- ذلك لأنني محظوظ في الجينات الوراثية، فأنا من نسل سلسلة طويلة من أجداد يتميزون بالرشاقة.

وندمت كالي لتسرّعها بهذه الملاحظة فسارعت تضيف: «حدثني بالمزيد عن هذا المركز الذي تخطط لإنشائه».

فنظر إليها ساخراً: «إذا شردنا عن الموضوع، من يعلم أين سنصبح؟».

ولاذت بالصمت. وارتاحت عندما حل الجد في عينيه محل الدعابة، وقال: «أريد أن أنشىء مركزاً للتفوق في مجال تصميم الإنترنت. كل شخص حالياً لديه كومبيوتر يمكنه أن يصنف نفسه مبدعاً، والناس ليس لديهم سبيل لمعرفة ما إذا كانوا يعلمون حقاً ما يفعلون أو أنهم يتعلمون ذلك».

أمضى ربع ساعة في شرح خطته لها، متحدثاً بحماسة محمومة ما جعل من الصعب التشكيك في واقعية إقامة هذا المشروع في هذا المكان غير المرغوب فيه. أدركت، وهي تستمع إليه، أنه شخص يظهر اللامبالاة بينما هو جاد للغاية. وكانت سمعت مثل هذه اللهجة من قبل في صوت مؤلفين يعرضون موضوع الكتاب الذي يقدّمونه. أسند ظهره إلى الخلف وهو يرشف شرابه: «أنت تظنينني مجنوناً، لكن ذلك، على الأقل، لن يدمّر عمل والديك. بل قد يفيدهم إذا اضطررنا إلى استعمال مساكن خارجية».

- لا أظنك مجنوناً، لكنني أظنك مغامراً نوعاً ما.

- كل الآراء اللامعة هي مغامرة في البداية، لكنها ستحقق نجاحاً معتبراً إذا استطعت أن أسيّرها بنجاح.

وقفز واقفاً ثم سار إلى المطبخ، وفي اللحظات التي سبقت رجوعه، خطر في بالها أن الطريقة التي قفز بها من مقعده بحركة واحدة، تعبر عن صفاته بأجمعها. فهو رجل عمل ومبدع. والوقت

الذي يمضيه الشخص معه لا يكون كئيباً أبداً. أما حياة المرأة التي سيتزوجها، هذا إذا تزوج، فهي مغامرة لا تنتهي. ولن تتحوّل أبداً إلى روتين ممل كأكثر الزيجات التي نعرفها.

- أحب أن آخذك غداً لأريك المنزل. إنه بحاجة إلى الكثير من إصلاح، ولكن لديه مستقبل ضخم.

- كيف عرفت بأمر هذا المنزل القديم الخالي؟ هل أرسل إليك أحد السماسرة التفاصيل؟

- إنه بيتي، ودوماً كان كذلك، فقد ورثته عن عمة أبي. لقد ماتت حين كنت طفلاً. ومنذ ذلك الحين أصبح البيت خراباً، وربما قبل ذلك بوقت طويل. لم يسكنه أحد قبل حربنا الأهلية.

خطر في بالها أن شخصاً يملك بيتاً كبيراً في إسبانيا قبل سنة ١٩٣٦ وهي بداية الحرب الأهلية، حيث كان أكثر الإسبان غاية في الفقر، لا بد أن يكون من الأغنياء. وتذكرت أن المرأة التي نشرت إشاعة بناء الفندق قالت إن الشخص الوحيد الذي يتذكر أصحاب ذلك البيت هي السنيورا مارتيني التي كانت تعمل عندهم كخادمة. وفكرت كالي في أن تذهب غداً لتتحدث إليها، فربما هي تعلم عن البيت أكثر مما يعلم نيكولاس نفسه.

- أحب أن أراه، لكنني أظن أنك بحاجة إلى وقت كثير لإصلاحه. هناك فرق كبير بين البنائين في مدريد والبنائين هنا المعروفين بالبطء والكسل.

رد نيكولاس: «أنا مستعد لذلك، ولكن لدي مهندساً من الدرجة الأولى لا يستخدم إلا أفضل البنائين. وعلى كل حال، هذا يكفي بالنسبة إلى خططي للمستقبل، الآن أريد أن أعرف المزيد عن عملك».

وقبل أن تجيبه، أضاف: «قبل أن نبحث في ذلك، هل تبقين هنا وتشاركيني تناول البيتزا؟ إذا قلت نعم ستربحين، أتعهد لك بذلك».

لم تكن واثقة من أن استئناف علاقة الصداقة بينهما هي فكرة حكيمة. ومن ناحية أخرى، إذا هي ذهبت إلى بيتها، من المحتمل أن تمضي ليلة كئيبة مملة بين أبيها الذي يجلس لمراقبة مباراة كرة القدم حالما ينتهي العشاء، وأمها ذات المزاج المتذمّر دوماً. وقالت: «لا بأس. سأبقى».

- تعالي إلى المطبخ، سنتحدث بينما أحضّر السلطة وكذلك البيتزا.

وسار معها إلى الجانب المتواري من الغرفة لترى كما ظنت، مطبخاً حسن التجهيز بخزائنه الخشبية والحوض والسطوح الرخامية المعتادة في البيوت الإسبانية.

وضع كرسياً قبالته فجلست عليه، بينما ابتدأ في إعداد طعامهما بكفاءة عفوية أدهشتها. كلما ظنت أنها تعرفه، كانت تجد فيه مزايا لم تعرفها من قبل. قال نيكولاس يذكّرها: «كنا سنناقش موضوع الترجمة. هل تنشر شركتك كتباً مترجمة؟».

بدت هذه فرصة تخبره فيها بأنها لم تعد تعمل في تلك الشركة، لكنها لم تجد نفسها مستعدة لتشاركه قلقها الخاص. لقد تبادلا عناقاً حميماً، كما أوشكا أن يصبحا عدوّين، من ناحيتها على الأقل. لكنهما ليسا، ولا يجب أن يكونا، صديقين حميمين.

- ليس كثيراً، أو بالأحرى ليس هناك أية كتب مترجمة. في الواقع، كنت راغبة جداً في نشر مذكرات نبيل إسباني أمضى حياة خلّابة. لكنني لم أستطع أن أقنعهم بفكرتي.

- أيّ من نبلائنا كان هذا؟

وعندما أخبرته باسمه قال: «إنه رجل أسطوري وقد تعرفت عليه. كتبه أحسن الكتب رواجاً في إسبانيا. ما أضيق تفكير أهل بلدك في عدم رغبتهم إعطاء القراء الإنكليز الفرصة ليتعرفوا فيها عليه! ولكن،

بالطبع، الإنكليز والأميركيون يميلون إلى العزلة عن الآخرين... مع بعض الاستثناءات.. مثلك، فهم ميؤوس منهم في تعلم اللغات الأجنبية».

- ألا تريد أن توضح لي لماذا إنكليزيتك بمثل هذا الكمال؟ لا يمكن أن يكون ذلك بسبب وجودك في أميركا، لأنك تتكلم الإنكليزية الأصيلة وليس الإنكليزية الأميركية.

بدا لها، للحظة، أنه ارتبك قليلاً، ولكن ربما خيّل إليها هذا لأنه قال: «لم تكن أمي قادرة على قضاء الكثير من الوقت معي عندما كنت صغيراً، فاختاروا لي مربية إنكليزية كبيرة في السن عاشت في إسبانيا فترة طويلة، لكنها لم تكتسب من الإسبانية سوى جمل بدائية. وهكذا كنا نتحدث الإنكليزية معظم الوقت».

تذكرت كالي أنها قرأت في مكان ما أن كل أفراد الأسرة الحاكمة في جنوب إسبانيا والبرتغال كانوا يجلبون لأولادهم مربيات إنكليزيات.

وتابع نيكولاس: «وطبعاً، منذ ذلك الحين، أمضيت وقتاً في كل من أميركا وبريطانيا، هل تنفعك لغتك الإسبانية في عملك؟».

- لا، في الواقع.

- لا أدري إذا كان لدى آل فيلدينغ أي من الكتب الصادرة عن داركم للنشر. ألقي نظرة على تلك الرفوف هناك. ربما تجدين كتاباً مكتوباً بقلم أحد مؤلفيكم.

فعلت كالي ذلك، ولكن رغم أن أصحاب البيت كان لديهم مختارات من الكتب من أكبر دور النشر في أميركا وانكلترا، إلا أنها لم تجد أي كتاب من نشر دار «إدموند».

وعندما عادت إلى المطبخ لتخبره، كان نيكولاس قد أنهى إعداد العشاء. فقال: «سيكون هذا العشاء هبوطاً مفاجئاً بعد عشاء الليلة

الماضية. أعجبني مضيفينا. إنهما عفويان في هذا العالم المتوتر».

- لا يبدو أنك تعاني من التوتر.

- ليس لدي أملاك مرهونة، ولا إيجارات مدارس تقلقني. أنا مسؤول عن نفسي فقط.. وهذا يجعل الحياة أسهل بكثير. ما هو مستوى التوتر عندك؟

ليته يعلم!

لكنها قالت ببشاشة: «جيد تماماً. ليس لدي ما هو مرهون، وأنا أدفع إيجاراً لصديقة لي لأشاركها بيتها. إن لديها مشكلة رهن، ولكن بما أنه بيت جميل في حي مرغوب راقٍ في لندن، عندما تتقاعد سيكون بإمكانها أن تشتري بيتاً فخماً في الريف إذا شاءت.

- نعم، الأملاك تعطي مردوداً جيداً على المدى الطويل.

وعندما تمتمت موافقة، أضاف: «لكنني أظن أن وضع والديك يقلقك، أليس كذلك؟ هل هما يملكان النزل؟ أم ما زالا يدفعان أجرته؟».

- إنهما يملكانه، لكنهما لا يملكان دخلاً آخر يعينهما إذا تدهورت أحوالهما. نعم، أنا أقلق لأجلهما. هل يعيش والداك في مدريد أم في الريف؟

- إنهما مطلّقان. أمي تعيش في مدريد بينما يعمل أبي في الخارج، وشقيقاتي متفرقات. لسنا أسرة متماسكة. لكن رغم أنك ابنة وفية، وربما أكثر من اللازم، لدي انطباع أن أسرتك أيضاً أسرة «مزعزعة» كما يقال.

فقالت بشيء من السخط: «انها ليست مزعزعة. كل ما في الأمر أن والديّ ليسا متناسبين ذهنياً. ولكن كم من الأزواج هم كذلك؟».

فقال بجفاء: «قليلون جداً ولعل هذا سبب حذر جيلنا من الزواج دون فترة تجربة أولاً...».

- إذا كان الناس غير واثقين في البداية، فالحظ في النجاح ضئيل للغاية.

- أنا اتفق معك في ذلك. كل العلاقات الفاشلة التي أعرفها كانت دون تعاون من جانب الرجل. إنه يريد كل شيء من الزوجة دون شعور بمسؤوليته... ولا بد أن النساء المعنيات ما كن يعرفن ذلك، لكنهن لم يشأن أن يواجهن الأمر، بدعوى أن نصف رغيف أفضل من الجوع أو العدم. لماذا تبخس النساء من أنفسهن؟ لماذا لا يقلن: لا، إذا كنت تريدني، أريد كل شيء أو لا شيء! إن لديهن نفوذاً كبيراً على الرجل، لكنهن لا يستعملنه تقريباً.

- أظن من الصعب أن تكون قوياً عندما تكون واقعاً في الغرام. أنا لم أحب قط، ولهذا لا أعرف.

أدركت كالي وهي تقول ذلك إنها كاذبة... فهي تحب نيكولاس. كان ذلك بالضبط ما شعرت به، قبل أن تطرده. وهذا ما جعلها تغضب عندما اكتشفت ما بدا لها، حينذاك، خداعاً. رفع نيكولاس حاجبيه: «لم تحبي قط؟ كم عمرك؟».

- سبعة وعشرون. حسناً، لقد مررت في فترة حب المراهقة، لكن ذلك لا يحسب حسابه في الحقيقة، هل أحببت أنت قط؟ أعني ذلك الحب الجاد؟

فهز رأسه: «حتى الآن، كلا. أنا أحب النساء وأستمتع بصحبتهن، ولكن أن ألتزم بواحدة منهن مدى الحياة، فهذا أمر مخيف. عندما تقابلين أحداً مثل تود وليونورا اللذين يبدو أنهما يحبان بعضهما البعض كما كانا في بداية حياتهما معاً، تبدو الحياة رائعة، لكن أمثالهما قليلون في هذا العالم».

فقالت كالي مفكرة: «أتساءل عما جعل زواجهما ينجح».

- مما سمعته عنهما من أناس آخرين في الحفلة، أظن أن السبب

يعود إلى أنّ كلاً منهما كان دوماً يساند الآخر.

- ماذا تعني؟

- عندما كان تود يعمل في النفط، كانت ليونورا تتبعه إلى كل مكان. وقد شجعها دوماً على أن ترسم، وساعدها بتمويل ما كانت تقوم به من إصلاح للأملاك القديمة وهو ما كانت تفعله بكثرة قبل أن يستقرا في إسبانيا. إنني أستشيرها بالنسبة إلى بيتي القديم. هل أنت مستعدة لتأكلي؟

- عندما تريد أنت. هل يمكنني أن أساعدك؟

- ضعي هذه على المائدة.

وناولها صحنين وقبضة من أدوات المائدة. رتبت الأغراض على المائدة، ثم أخذت تتساءل إن كان عليها أن تغلق الستائر الطويلة في قاعة الجلوس وغرفة الطعام، ثم عادت فقررت أن تترك الأمر له.

بعد أن أشبعت فضولها بالنسبة إلى مشروعه، كان من الحكمة أن ترفض دعوته للبقاء. فادعاؤها أنها لا تحب أحداً كشف لها أنها واقعة في حب نيكولاس وبعد هذه الليلة سيكون عليها أن تكون أقوى وتقاوم المزيد من المودة بينهما.

لقد أوضح لها أنه لا ينوي السير في علاقة جادة، وهي لا تعرض نفسها في السوق لأي علاقة، مهما كانت هذه العلاقة ممتعة في البداية. وعلى كل حال، كما قال بنفسه، قوة المرأة إزاء الرجل هي في المقاومة وليس في الاستسلام. وطالما أبقته بعيداً عنها، ستبقى تحدياً له، وما إن تخضع، حتى تصبح اسماً آخر في قائمة نسائه اللواتي استمتع بهن ثم نبذهن. فهو حتماً لم يمض العشرينات من عمره راهباً في دير. لم تشأ كالي أن تفكر إلى أين كان يمكن أن يصل صف غراميات نيكولاس الماضية، لكنها تعلم أنها لا تحب أن تندمج في هذا الصف. العلاقة الوحيدة التي تريدها هي ما يشبه علاقة الزوجين دريدن ببعضهما

البعض. وإذا فشلت في ذلك، فهي تفضل أن تعيش حياتها بمفردها.

أنهيا العشاء وجلسا يشربان القهوة في غرفة الجلوس حين اقترح نيكولاس مشاهدة الأخبار في التلفزيون. وهي نادراً ما تشاهد الأخبار في لندن، أما في إسبانيا فلا تشاهدها أبداً.

وعندما انتهت نشرة الأخبار الرسمية، نهضت واقفة: «يجب أن أذهب الآن، شكراً للعشاء».

لم يحاول أن يقنعها بالبقاء، لكنه أصرّ على مرافقتها في السير إلى بيتها. وخارج البيت مدت يدها مصافحة: «شكراً مرة أخرى للعشاء».

- بكل سرور.

ورفع يدها يقبلها كما فعل مع ليونورا دريدن في الحفلة.

- تصبحين على خير.

ثم استدار عائداً من الطريق الذي جاء منه.

عندما وصل نيكولاس إلى «لاهيغارا»، بدا له أن أثراً خفيفاً من عطرها ما زال في الجوّ.

غسل الأطباق وهو يتمنى لو أنها بقيت، ليتناولا الفطور معاً.

بيته في مدريد مختلف عن هذا. هذا البيت مصمم لشخصين ما جعله واعياً لوحدته. لطالما كان يحمي عزلته، مستمتعاً بانفراده بنفسه. لكنه انتبه هذه الليلة فجأة إلى أن العزلة، ككل شيء آخر، لها جانبها السيء القريب من الوحشة. لم تكن غرفة الجلوس هي الوحيدة التي تحوي كتباً. فالكتب منتشرة في كل مكان؛ في الردهة، على رفوف فسحة السلم، وفي غرف النوم. قبل ذهابه إلى سريره أخذ يبحث في الرفوف عن رمز دار نشر «إدموند وبروك» في أواخر الكتب المنشورة فيها، ثم رفع غطاء الكمبيوتر، فأطلع على بريده وعالج أموره وأعماله، ثم بحث فيه عن ركن دار النشر.

في سريره، أخذ يتفحص الكتب التي وجدها، مهتماً بطريقة

إخراجها. كان يشعر أن إنتاج الكتب الإنكليزية ليس بجودة الأميركية. لكن أغلفة هذه الكتب بدت ممتازة، ومطبوعة على ورق جيد.

وجد في أحدها إهداءً: (إلى كالي هيغ، محررتي، التي جعلت عملية إخراج هذا الكتاب أقل إيلاماً. ومن دون تشجيعها المتواصل وعقابها لي أحياناً، لما انتهى هذا الكتاب في الوقت المناسب. لا شك أنها إحدى لآلىء مهنتها).

كتب هذا الإهداء بقلم رجل، تدل صورته الموضوعة على الغلاف الأخير، أنه على قدر كبير من الحساسية. وتساءل نيكولاس عما إذا كانت علاقته بكالي شخصية أم مهنية فقط.

أمضت كالي ليلة قلقة. وتملكها الأرق على فترات متقطعة، كانت تجاهد أثناءها في مواجهة المصيبة التي اكتشفتها، وهي أن قلبها لم يعد ملكها بل شق طريقه إلى رعاية شخص آخر. كان هذا شعوراً غير مريح وهو السبب الذي جعل ذهنها يحاول أن ينكر ما حدث.

نهضت في الصباح مبكرة كعادتها رغم قلة نومها، ثم أعدت كلمة شكر مختصرة لترسلها بالإنترنيت إلى نيكولاس عندما تفتح بريدها القادم، وإذا بها تصاب بالدهشة عندما وجدت رسالة منه تتعلق بموقع دار نشر «إدموند وبروك» على الإنترنت. وازدادت دهشتها عندما فتحت الرسالة لتجد أنها مفصلة فهو يحلّل، منتقداً، موقع مركز عملها السابق. ثم ازدادت دهشتها أكثر لملاحظته (من الواضح أن المسؤول عن هذا الموقع لا ينظر إلى مواقع الناشرين الآخرين ليتعلم منهم. الطريقة الجيدة لجذب الزائرين هي أن يمتلك زاوية للرسائل يمكن للقراء فيها أن يناقشوا الكتب التي قرؤوها سواء كانوا قد استمتعوا بها أو لم يستمتعوا). انظري مثلا زاوية الرسائل في موقع «هارلكوين. كوم».

تعلم كالي أن دار نشر هارلكوين هي أحسن دار نشر للروايات

العاطفية في العالم، ولكنها لم تتوقع منه أن يعلم بذلك. ستسأله عن ذلك عندما تراه في المرة القادمة.

عليها أيضاً أن تعترف بأنها لم تعد تعمل في دار نشر «إدموند وبروك»، مهما كان في ذلك من مذلة لها، فقد حان الوقت لتكون صريحة معه. إذا تابعت خداعها له، وعلم الحقيقة، فسيفسد ذلك رأيه فيها.

وتمنت لو أنها لا تهتم برأيه فيها لكنها، في الحقيقة، وجدت ذلك فجأة أمراً هاماً للغاية.

***

٧ ـ وقعت . . بين ذراعيه

في آخر شهر تشرين الثاني كانت قرية الريكاراسكا مسرحاً لمعرض صغير للحرف والفنون جذب الناس من كل الجنسيات. وغصت البلدة بالسيارات، فكل مكان في القرية كان مشغولاً وسيارات الزائرين تملأ الطرقات خارجها حتى إن بعضها أوقفت في كروم العنب.

استمر المعرض إلى ما بعد حلول الظلام، وهذه السنة جهّزت إضاءة أشبه بإضاءة عيد الميلاد متدلية فوق الساحة لتظهر أن قرية الريكاراسكا تتماشى مع الزمن، بالرغم من قلة سكانها.

قامت كالي بأولى جولاتها في المعرض في منتصف نهار السبت.

كانت تنظر إلى تحفة مصنوعة من شوكات فضية قديمة على منصة قريبة من الطريق، عندما سمعت صوتاً إنكليزياً يقول: «آه. . . لا أمانع في أن أملك سيارة كهذه».

فأجابه صوت آخر: «عليك أن تربح ورقة يانصيب لكي تستطيع أن تشتريها. . وتدفع ثمن البنزين».

نظرت كالي حولها فرأت أن السيارة التي يتحدثان عنها فارهة فضية الدهان مكشوفة الغطاء. أما سائقها فهو الوحيد الذي لم يكن يستعمل البوق أو يصيح بشرطي القرية، فيما يحاول هذا الأخير أن يفض زحمة السير. وقد بدا عليه الاسترخاء والتسلية معاً. إنه نيكولاس!

انتقلت كالي إلى السياج الذي يفصل الطريق عن القسم المركزي من المعرض، لكي تراه عن قرب. لم تكن تهتم بالسيارات ولا تعرف ما هو طرازها. ولكن، وكما قال الرجلان، فإن سيارته غالية الثمن للغاية، ومن حسن الحظ أن لاهيغارا يحتوي على كاراج، كما أخذت تفكر. لأن إيقاف سيارة كهذه في الشارع يسبّب المتاعب.

وفجأة، رفع نيكولاس بصره فرآها. التغيير في ملامحه من الصبر المستسلم إلى السرور الواضح أرسل رجفة من البهجة في كيانها. عند ذلك فقط ابتدأت حركة السير، وعندما مرّ بها، قال: «لا تبتعدي، أريد أن أتحدث إليك. سأكون معك بعد دقائق».

التفت إليها رجل عجوز من القرية، ثم سألها بفضول القرويين المعتاد من جيله: «ماذا قال لك، هل كان يتحرش بك؟».

كانت كالي تعلم أن «التحرش» ما هو إلا كلمات غزل ومدح يُسمعها الرجل للمرأة التي تمر بقربه.

فهزت رأسها: «إنه مستأجر يقيم في القرية. وهو يريد أن يتحدث إليّ».

ـ يبدو هذا مكاناً غريباً بالنسبة إلى شاب يملك سيارة كهذه.

هز العجوز رأسه بحيرة لغرابة تصرفات بعض الناس. ثم حدّق إليها عن قرب وقال: «أنت فتاة بجمال فتيات المدينة، ولو كنت شاباً لرغبت في الحديث معك أنا أيضاً».

فضحكت: «شكراً، يا سنيور. أنا واثقة من أنك عندما كنت شاباً، كانت الفتيات الجميلات يتمنين أن تتحدث إليهن».

قهقه بصوت خافت: «ربما، كان ذلك منذ وقت طويل. استمتعي بصباك وأنت ما زلت شابة، قبل أن تنتبهي فتجرّين نفسك كما أفعل الآن».

ثم ابتعد لينضم إلى رجل عجوز مثله، تاركاً كالي في انتظار

نيكولاس. ولم يمض وقت طويل قبل أن تراه يدخل المعرض، فسارت لتقابله. قال وهما يلتقيان عند منصة تعرض الدمى: «ما رأيك بفنجان قهوة إذا وجدنا طاولة خالية؟».

وكانا محظوظين لأن مجموعة من أربعة أشخاص ألمان كانوا يهمّون بإخلاء طاولتهم تحت شجرة.

ـ اجلسي عند المائدة بينما أذهب لأطلب القهوة.

وفيما هي تنتظر عودته، انطلقت من المايكروفون أغنية حب قديمة الطراز اعتادت أن تسمعها في الاستراحات طوال حياتها. وكانت المغنية إحدى أشهر الفنانات الشعبيات الإسبانيات. وعاودتها ذكرى طفولتها، حين كان والداها يعيشان في جنوب إسبانيا. كان طموحها يومذاك أن تصبح راقصة فلامنكو.

أخذت قدماها تتحركان على نغم الموسيقى وعيناها تتابعان مدّ وجزر الناس. وأدركت أنها ستتذكر دوماً هذا الصباح المشمس وهذه اللحظات، منتظرة نيكولاس طوال حياتها. لم تكن لديها فكرة لماذا يريد أن يتحدث إليها، ويكفيها أنه فعل ذلك. كانت هذه سعادة... ومضة نور سريعة... شيئاً غير مبرر... لكنه حقيقي.

عاد نيكولاس بفنجانين من القهوة وصحني لوز على صينية. وبعد أن وضعها على الطاولة، أعاد الصينية إلى الداخل ثم عاد وجلس بقربها.

ـ كنت أقرأ كتاب «نهر الحياة، الموت والحب». وجدت هذا الكتاب في الطابق الأعلى في الليلة التي تعشيت فيها معي، إنه كتاب رائع... وفيه إهداء لك في المقدمة. هل لذلك المؤلف كتاب آخر في الطريق؟

ـ نعم، لكنني، لسوء الحظ، لن أحرره بنفسي، وقد يكون عليه أن ينتقل إلى دار نشر أخرى.

فرفع حاجبيه: «لماذا؟».

- آسفة لأنني ضلّلتك. كنت أعمل في دار نشر إدموند وبروك لكن هذا انتهى. لقد صرفوني من العمل. أنا... لم أكن أقصد أن أخدعك... فقط لم أشأ أن أتحدث عن ذلك في البداية.

- متى حدث ذلك؟

- كانت الفكرة موجودة عندما كنت مقيماً عندنا. لكن الأمر لم يحدث إلا بعد عودتي إلى لندن. لم يعد هناك شيء يسمى وظيفة مضمونة هذه الأيام. وأظن أن الأمر هو نفسه هنا، رغم أنه ليس لدي اتصالات بعالم الأعمال هنا... في الواقع.

- هل فكرت في البحث عن عمل كمحررة في هذه البلاد؟

- لقد فكرت في ذلك. ولكن رغم أن لغتي الإسبانية جيدة للاحتياجات اليومية، لا أظن بإمكاني أن أنجح في التحرير بالإسبانية. لقد تعلمت في إنكلترا ولهذا أنا أعلم عن الآداب الإنكليزية وليس عن الإسبانية. عليّ أن أكون متمكنة من اللغة لكي أكتب أو أحرر بها، والترجمة تحتاج إلى تمكّن من اللغتين لكي يأتي العمل جيداً.

بدا عليه التفكير: «هل سبق لك أن حاولت العثور على عمل آخر في لندن؟».

- طبعاً، أنا أراقب دوماً الإعلانات عن العمل في دور النشر على شبكة الإنترنت. المشكلة هي أن هذا ليس هو الصرف الجماعي الوحيد الذي حدث مؤخراً. لو أن كتاب نهر الحياة لاقى رواجاً أكبر لوجدنا أنا ورايس وظيفة أخرى، بكل سهولة. لكن الكتاب لم يجد التشجيع والإعلان الكافي لكي يعتبر أفضل الكتب مبيعاً.

- أين رايس الآن؟

- ذهب إلى الهند مرة أخرى راجياً أن يجد موضوعاً لكتاب جديد. إننا على اتصال دائم عبر الإنترنيت. أظن أن أعجب الأشياء التي ذكرت

في كتاب نهر الحياة والموت هو أن كثيراً جداً من القرى الواقعة على ضفاف نهر «الغانج» لديها تسهيلات لإرسال البريد بالإنترنت.

- هذا لا يدهشني بقدر ما يدهشني أمر آخر. عندما كنت أعمل في «سيليكون ڤالي» في كاليفورنيا، اكتشفت أن الهند تنتج عدداً محيّراً من الرجال اللامعين تقنياً. إذا هم عادوا بخبرتهم هذه إلى بلادهم، يمكن أن تقود الهند العالم في هذا المجال، وقد تفعل ذلك. أخبريني بالمزيد عن رايس؟

فضحكت: «لدى رايس مشكلة عدم السير بنظام كما يفترض بالمؤلفين. فلا فائدة من انتظار الإلهام. عليهم أن يعملوا يومياً مهما كان الأمر. تمرين العقول كتمرين الأجسام بالضبط. على الشخص أن يداوم عليه مهما اختلفت ظروفه».

- أتفتقدينه؟

حيّرها هذا السؤال: «أفتقده؟ ماذا تعني؟».

- هل بينكما علاقة شخصية إلى جانب العلاقة العملية؟

فهزت رأسها: «ما الذي جعلك تظن ذلك؟».

- هذا يحدث غالباً عندما يعمل شخصان معاً.

- ليس بالمفهوم العادي. أغلب عملنا كان بواسطة الإنترنت.

- قد يقع الناس في الحب بواسطة الإنترنت. قد يكون الانجذاب الفكري إلى شخص ما أقوى أساساً من الانجذاب الجسدي.

- ربما، لكن مشاعر رايس كانت مشغولة مسبقاً عندما أرسل إلي الفصول الأولى من الكتاب وكلفني به. فهو ما زال يحب المرأة التي جذفت معه في نهر الغانج. ألم تفهم هذا من قوله إن رفيقته في رحلته كانت أهم شخص في حياته؟ إذا لم تفهم ذلك، فماذا تعني كلمة «الحب» التي أشار إليها اسم الكتاب؟

- بدا لي أن نهاية الكتاب تقول إن الحب شيء زائل، وإن لا

مستقبل لهما.

فتنهدت: «لا أظن أن الحب كان متبادلاً. لقد استمتعت لوسيندا بتلك المغامرة معه، لكن رايس أراد أن يستمر في مغامراته، وهي تريد الاستقرار في حياتها مع أطفال وأصدقاء. ونظراً لتفكيرها التقليدي، يبدو غريباً كيف استطاع أن يقنعها بالذهاب معه منذ البداية».

- أظن أنها تحبه، والنساء يقمن بأشياء محيّرة عندما يقعن في الحب.

- ولكن إذا كانت تحبه وما زالت، فعليها أن تضع سعادته أمام عينيها دوماً. رايس من نوع الرجال الذين لا يستقرون أبداً في حياة هامشية.

- يمكنك أيضاً أن تقولي إنه إذا أحبها، فعليه أن يفكر في سعادتها أولاً. قضاء فترات طويلة في أماكن ممتعة لكنها غير مريحة وخطيرة غالباً، ليست هي الحياة التي تريدها معظم النساء.

أنهت كالي قهوتها ثم قالت: «أظنني متحيزة إلى جانب رايس لأنه كاتب رائع. وأظنه يريد حبها ومساندتها له، وهي محظوظة بأن يحبها مثل ذلك الرجل الموهوب. واستغرب أن ترى أنت الموضوع من وجهة نظرها».

- أنا لا أراه من وجهة نظرها بل من الحقيقة والواقع، إذ يبدو أنهما غير منسجمين فكرياً. ربما عليه أن ينتظر حتى يقابل امرأة تحبه وتحب طراز حياته. ولا أظنه أمراً جيداً أن يعارض فطرته ليكيّف نفسه مع هوى شخص آخر. وفي رأيي أن ذلك ليس بداية جيدة بالنسبة إلى أي مشروع مشترك.

وفي هذه اللحظة اقترب شخصان من مائدتهما: «هل لديكما مانع في أن نجلس معكما؟ المكان مزدحم جداً اليوم».

فقال نيكولاس بأدب: «على الإطلاق».

ونهض قليلاً تحية للمرأة التي جلست إلى جانبه الآخر. بدت المرأة فوق الستين لكنها تحاول أن تبدو في الأربعين. وأما الرجل الذي يرافقها فقد مشط خصلات شعره من جانب لآخر يغطي بذلك البقعة الصلعاء في رأسه، كما كانت ملابسه تنمّ عن الثراء. قالت المرأة: «جئنا من «كالب». إننا من «بوتل» في «لانكشاير». من أين أنتما؟».

فأجاب نيكولاس: «أنا من مدريد وصديقتي من لندن. إذا أردتما أن تطلبا شيئاً، عليكما أن تذهبا إلى الداخل، ولكن إذا شئتما سأقوم بذلك لأجلكما لأن المكان فوضوي هناك».

- هل تفعل ذلك؟ إنها شهامة بالغة.

وحين عاد، سأله فريدي كم هو مدين له، فقال: «أرجوك.. كونا ضيفيّ».

اشتركت كالي قليلاً في الحديث حيث تحدث الضيفان كثيراً عن نفسيهما، فيما راح نيكولاس يلقي عليهما الأسئلة مبدياً اهتماماً بالغاً بما يقولانه. وأخيراً، عندما أنهت كالي شرابها، نهض واقفاً: «نرجو المعذرة، نريد أن ننهي جولتنا على المنصات، الوداع».

وصافحهما. وعندما ابتعدا، سمعت كالي المرأة تقول: «يا له من رجل طيب شهم».

لم تجد سوى أن توافق نورا، فقد كان نيكولاس كذلك حقاً.

عندما ابتعدا عن مرمى السمع، سألته: «لماذا كنت بهذه الشهامة معهما؟».

نظر إليها بحيرة: «شهم؟ لو كنت في مقهى في لندن وطلب زوجان إسبانيان منك أن تسمحي لهما بالجلوس إلى مائدتك، ألا تكونين مهذبة معهما؟».

- طبعاً. ولكني لا أشتري لهما شراباً وأشجعهما على سرد قصة حياتهما.

فضحك: «أنا في مزاج طيب، الشمس مشرقة، والموسيقى تملأ الجوّ، ومعي رفيقة فاتنة.. في ظروف كهذه من لا يكرم الغرباء بسرور؟».

سألها نيكولاس بعد فترة: «ما رأيك في هذه الحلى الفضية؟».

- ليست حسب ذوقي تماماً. هل تبحث عن هدايا عيد الميلاد لشقيقاتك؟

- أنا أهدي كتباً في أعياد الميلاد، وغالباً ما أشتريها عبر الهاتف لأوفر على نفسي ضرورة لفّها. هل تستمتعين أنت بلفّ الهدايا كأغلب النساء؟

- نعم، أحب ذلك، أنا أعشق اختيار ورق الهدايا والشرائط الحريرية والبطاقات، رغم أن وجود ذلك أيسر في لندن منه هنا.

- هل ستكونين هنا في عيد الميلاد؟

- نعم، فكل غرفنا محجوزة ولهذا سيكون العمل كثيراً عندنا، أين ستمضي أنت العيد؟

- ربما في القسم الفرنسي من جبال «البيرينيه». لم أقرر بعد. أما خدمة حشد من كبار السن فلا يبدو فيه الكثير من البهجة.

- كبار السن هم أحياناً أكثر إمتاعاً من صغار السن. كالسيد والسيدة دريدن على سبيل المثال.

- لا أرى السيد والسيدة دريدن نموذجيين في الجالية المغتربة.

- ليسا نموذجيين... لا، لكنهما ليسا متفردين أيضاً. فهناك أشخاص ممتعون من كبار السن يعيشون هنا. وعلى كل حال، عيد الميلاد ليس مهماً للغاية بالنسبة إليّ. فسكان القرية يحتفلون به بمرح وصخب بالغين حتى كادوا يفسدونه.

- هذا صحيح، وهذا هو السبب الذي جعلني، في السنتين الأخيرتين، أمضي عطلة العيد في تسلق الجبال، متجنباً الهياج

والحماسة. ربما تتغير نظرة الشخص إلى العيد إذا كان لديه أولاد.

كلماته الأخيرة أدهشتها. فمن الصعب أن تتصوره رب أسرة بأي شكل. إنها تتصوره من أولئك الرجال الطموحين الناجحين المندفعين في الحياة والذين لا يرون في الزوجة والأولاد دوافعهم الأولية. كانت تظن أنها هي نفسها، تنتمي إلى هذا الصنف، وأن مهنتها تهمها أكثر من أي علاقة شخصية. لكن توقفها عن العمل جعلها تمضي مزيداً من الوقت في التفكير في أولوياتها. حتى قبل أن تعرف أنها وقعت في الغرام، كانت قد ابتدأت تتساءل عما إذا سمحت لفشلها في أول علاقة شخصية بأن تؤثر على نفسيتها أكثر مما يجب.

- نيكولاس... ما الذي تفعله هنا؟

هتف بذلك رجل لا تعرفه وهو يضربه على كتفه.

- مرحباً يا سيمون. لم أتوقع رؤيتك، رغم سماعي بأنه أصبح لديك منزل في هذه المنطقة. كنت أنوي أن أبحث عنك فيما بعد. كالي، هذا سيمون موندراغون صديق قديم لي. أقدم إليك كالي هيغ.

قال الكلمات الأخيرة بالإنكليزية، فمد الرجل يده مصافحاً: «أهلاً وسهلاً يا آنسة هيغ».

بدا الرجل مثل نيكولاس، طويلاً أسود الشعر، لكنه أكبر بعدة سنوات. شعرت كالي نحوه بالمودة من النظرة الأولى: «أهلاً وسهلاً، تشرفنا».

فقال مجيباً نيكولاس: «نعم، لديّ بيت في «كاستيل دي لوس توروز». وكان قد تحوّل إلى نزل للأولاد الذين يأتون من المناطق الفقيرة ليتذوقوا حياة الريف. وأنا وزوجتي نأتي من وقت لآخر لنرى سير المشروع. سمعت زوجتي أن هناك معرضاً للفنون والتحف في الريكاراسكا فأصرّت عليّ لأحضره... لأن هدايا العيد سيئة للغاية في متاجر مدريد».

- أتراك تتهمني بالإدمان على التسوّق يا سيمون؟

قالت ذلك امرأة جميلة، وهي تبرز من بين الجموع في الوقت المناسب لتسمع قوله، ثم مدت يدها إلى نيكولاس وهي تبتسم بحرارة: «آخر مرة رأيتني فيها كنت في ملابس العرس، وأنا الآن ربة منزل مضطهدة، حبلى على الدوام من هذا الرجل الرجعي المتعصب».

وألقت على زوجها نظرة تعنيف مداعبة. فضحك وأحاطها بذراعه: «لست حبلى على الدوام، يا حبيبتي».

ونظر إلى كالي قائلاً: «نحن متزوجان منذ ست سنوات ولدينا إبن عمره أربع سنوات، ونرجو أن يكون الطفل القادم في تشرين الثاني بنتاً. أقدّم إليك كالي هيغ يا كاسيا».

عندما تصافحت المرأتان، قال نيكولاس: «أتعني أنك لا تعرف جنس الطفل بعد؟ ظننت أن بإمكان الأبوين أن يعرفا جنس الجنين قبل الولادة».

فقالت كاسيا: «نعم، وذلك بعد إجراء صورة صوتية. لكن، كما فعلت في أول حمل لي، أحاول أن أنهي هذا بأقل ما يمكن من التدخل الطبي. لأن السماح للطبيب بالتدخل في كل صغيرة وكبيرة، سيجعل الطفل بعد ذلك ضعيفاً مريضاً بينما يجب أن يولد بشكل طبيعي كما يولد حمل النعجة في الجبال. والآن كفى حديثاً عني، لما لا نذهب إلى مقهى لنشرب العصير؟».

فقال نيكولاس: «المقهى مقفل، لما لا نذهب لنشرب العصير في حديقتي؟ بيتي قريب من هنا».

فقال سيمون بدهشة: «هل تسكن في هذه القرية؟».

- لقد أستأجرت بيتاً يملكه كاميرون فيلدينغ، المراسل التلفزيوني. ربما رأيته على الشاشة يا كاسيا؟

- هل نسيت أنني لم أعش قط في إنكلترا؟

ثم قالت لكالي: «أنا إنكليزية بالاسم فقط، لكنني في الحقيقة غجرية. وعندما عرفني سيمون كنت أعيش في القسم العربي الأصلي من غرناطة».

فقال زوجها: «يمكنكما أن تخبرا بعضكما البعض قصة حياتكما عندما نصل إلى بيت نيكولاس».

بعد ذلك بنصف ساعة، كانت كالي مسترخية في فناء بيت نيكولاس الهادىء تشرب عصير البرتقال مع كاسيا، وكانت كالي تشرح لزوجة سيمون واقع حياتها. فيما راح الرجلان يتحدثان في الأعمال.

رغم أن شجرة التين كانت قد فقدت أكثر أوراقها، لم يكن مظهر الفناء عارياً. بينما ظلت المرأة تتحدث بالإنكليزية، عاد الرجل إلى الحديث بالإسبانية، وبدا واضحاً أنهما متفاهمان تماماً. في هذه اللحظة سمعت كالي الرجل الآخر يقول: «وهكذا أنت ستفعل مثلي وتكيّف إرثك بما يناسب القرن الحادي والعشرين؟».

فسمعت جواب نيكولاس: «ميراثي لا يوازي ذرة من ميراثك»

فتساءلت عما يعنيه. وإذا به يلتفت إلى المرأتين: «سأذهب لأري كالي بيتي المهجور في الجانب الآخر للوادي. أتحبان أن تأتيا معنا؟ يمكننا بعد ذلك أن نتناول الغداء في مكان قريب سمعت عنه».

فقال سيمون: «سنرى بيتك المهجور في يوم آخر، أما الآن فقد ابتدأت كاسيا تتعب. ولكن لماذا لا تأتيان للعشاء معنا هذا المساء؟ منزلنا ليس بعيداً، إنه على بعد نصف ساعة فقط».

فقال نيكولاس: «بكل سرور. هل يناسبك ذلك يا كالي؟».

- لا أظن أن باستطاعتي الخروج هذا المساء. سيكون والداي في الخارج ولا بد أن يبقى أحد في المكان ليستقبل النزلاء. والداي يملكان نزل «كازا رورال».

قالت الجملة الأخيرة تشرح أمرها للزوجين، فقال نيكولاس: «ألا

تستطيع جوانيتا أن تنوب عنك؟».

- ليس الليلة مع الأسف.

تمنت أن لا يسألها عن السبب، وتملكها الارتياح حين لم يفعل، بل قال لسيمون: «سآتي وحدي إذن. هناك بعض التعقيدات القانونية التي ربما سبق لك التعامل معها فيمكنك أن تنصحني بشأنها».

وعندما ذهب الزوجان قال لها: «أتريدين أن تتصلي ببيتك لتبلغي والديك أنك ستتغدين خارجاً؟».

- لكنك ستتعشى خارجاً هذا المساء، ولا يمكنك أن تتغدى خارجاً أيضاً؟

- بل أريد ذلك بكل تأكيد، سأذهب لأخرج السيارة. تعلمين أين هو الهاتف... في غرفة الجلوس قرب الأريكة.

كان هاتف والديها متصلاً بجهاز الإجابة فتركت لهما خبراً، ثم ذهبت إلى الردهة في الوقت الذي عاد نيكولاس فيه إلى الباب الأمامي: «كل شيء على ما يرام؟ حسناً، لنذهب فسيارتي تسدّ الطريق».

إنها المرة الأولى التي تجرب كالي فيها ركوب مثل هذه السيارة الفارهة. وبدلاً من الذهاب في الطريق الذي تتوقعه، دخلا طريقاً ضيقة بين منزلين لا تكاد تتسع لمرور سيارته، فأقل خطأ منه يمكن أن يتسبب بخدش طلاء السيارة. لم تكن سيارته تتخبط في سيرها كسيارة أمها، فشعرت كالي وكأنها تنزلق على بحيرة ڤينيسيا المالحة في زورق بخاري ما ذكرها بعطلة أسبوعية لا تُنسى أمضتها مع أوليڤيا وديبوراه في ڤينيسيا منذ سنتين.

سألته: «أذهبت قط إلى ڤينيسيا؟».

- طبعاً. رؤيتها من ضروريات الحياة. ألا تظنين ذلك؟

- ذهبت إليها مرة واحدة. وأنا... أظن فعلاً أن رؤيتها ضرورية. أعني، لو كنت مليونيرة لاشتريت بيتاً فيها.

فسألها وهو ينظر إليها باسماً: «وبيوتك الأخرى أين ترغبين بأن تكون؟».

- لا أدري، لم أسافر بالمقدار الذي أحب. البيت في تشيلسي حيث أستأجر سريراً، رائع. كما أنني أرغب دوماً في موطىء قدم في إسبانيا. أين تحب أن يكون مركز إقامتك لو كنت ذا ثراء أسطوري؟

وفي تلك اللحظة، وفي سيارة رائعة أخرى، كان الماركيز دي موندراغون يقول لزوجته: «حبيبة نيكولاس الأخيرة تبدو لطيفة. ما رأيك فيها؟».

فقالت كاسيا: «لقد أحببتها، لكنني لا أظنهما على علاقة، ما الذي جعلك تظن ذلك؟».

- فقط صيته مع النساء كما أظن. إذا أعجبته امرأة فهي تستسلم له عادة. نيكولاس، بعكس أخيه، محبوب من كل شخص ولطالما كان كذلك. ومن المؤسف أنه ليس الوارث، لو كان كذلك لأعاد لم شمل الأسرة، وهذا شيء لن يفعله أبداً حمار مثل رودريغو الذي يشبه أمهما.

- مما سمعته عنها، أظنها ستكون حماة مخيفة. نادراً ما تقول أمك كلمة سيئة عن أحد، لكنني أعلم أنها لا تحب الدوقة والدته، ولا بد أن نيكولاس يشبه أباه. أليس هو الديبلوماسي؟

- نعم، إنه سفير، وسيحال للتقاعد قريباً. كان أحسن أزواجها، ونيكولاس هو أحسن أولادها. إنه رجل ماهر. هل تظنين أن كالي تماثله؟

- من الصعب الحكم على الناس بعد معرفة بسيطة. لكن الرجل الماهر لا يحظى دوماً بزوجة ماهرة. أنا لا أماثلك ثقافياً، لكنك تبدو راضياً بي.

أمسك موندراغون بيدها: «أنا أحبك جداً وأنت تعلمين هذا. لو

رزقنا ببنت لها عقل أمها، وأتيحت لها فرص أفضل مما أتيح لك، فستكون ابنتنا بعد خمس وعشرين سنة واحدة من أبرز نساء الأعمال في إسبانيا».

- أرجو أن تتمكن من الجمع بين هذا وبين أن تكون زوجة سعيدة. لو كنت في الجامعة ولم أكن موظفة استقبال، لما تعرفت إليك.

وسكتت قليلاً ثم عادت تقول: «عندما يأتي نيكولاس إلى العشاء، سأسأله عنها. يمكن معرفة ما إذا كان الرجل جاداً بالنسبة إلى الفتاة، من طريقة حديثه عنها».

فقال زوجها: «هذا لا ينطبق على نيكولاس، فهو متحفظ جداً».

***

- كان المنزل يدعى «لاسوليراد»

قال نيكولاس هذا وهو يدخل بسيارته من فتحة بين الأشجار، فلاح لهما المنزل. سبق لكالي أن رأت بيوتاً مشابهة لهذا البيت، من تراث القرن التاسع عشر الإسباني.

عندما غادرا السيارة وسارا نحو المدخل الرئيسي، رفعت بصرها إلى الواجهة لترى النباتات النامية في صدوع الجص المزخرف، مسببة شبكة من الشروخ. بالرغم من حالة الإهمال، لم يكن البيت يبدو كئيباً. ربما كان سيبدو كذلك في جوّ مختلف، ولكن هنا، تحت سماء زرقاء وشمس مشرقة، بدا كخرائب شاعرية. سألته: «هل ستصوّره كما هو الآن؟ من المهم أن تسجل كيف كان قبل إصلاحه».

- أنا أوافقك، وهذا العمل أنجز... صوّرته أنا كما صوره مصوّر محترف أرسله إلي مهندسي. وفي المرة القادمة عندما تأتين إلى بيتي سأريك الصور.

فتح نيكولاس الباب الضخم محدثاً صريراً، ثم دخلا ردهة واسعة فيها سلم فسيح يصل إلى الطابق العلوي.

قال نيكولاس: «عندما جئت للمرة الأولى كانت الرائحة أكثر سوءاً. فجئت مرة أخرى حيث أمضيت يوماً كاملاً فتحت فيه كل الأبواب والنوافذ للتهوئة».

طافا من غرفة إلى أخرى. وقالت: «أتساءل كيف كان يبدو في قمة مجده! أتظن أن هناك صوراً فوتوغرافية في ألبومات منسية؟».

- ربما. سأبحث عن ذلك يوماً ما.

ثم فتح باباً خلف المنزل، فأطلا على ما كان يوماً حديقة. رأت جراراً مزخرفة على قمة أعمدة قائمة على كل درجة من درجات سلم مسطّح. كانت كالي تجول حول أحد تلك الأعمدة، متقدمة نيكولاس قليلاً، فإذا بما كانت تظنه عوداً يتحرك فجأة. وأدركت أن ذلك لم يكن سوى أفعى فشهقت وقفزت إلى الخلف ما جعل كعب حذائها يعلق بإحدى الدرجات ففقدت توازنها. ولو أن نيكولاس لم يسارع إلى الإمساك بها، لسقطت أرضاً. اندفع يطوق خصرها بذراعه، قائلاً: «إنها أفعى غير سامة أخرجتها الشمس».

في تلك اللحظة شعرت كالي برأسها يدور، ليس من الصدمة لرؤية الأفعى، بل من التيار الكهربائي الذي أحدثته لمسة ذراعه. وفجأة أدارها نيكولاس إليه وعانقها.

***

٨ـ أحبها وابتعد عنها

وكما حدث لها عندما عانقها في المرة الأولى، نسيت كل شيء ما عدا رغبتها في البقاء بين ذراعيه. تجاوبت معه بلهفة وشوق كالمرة الماضية تماماً، بل ربما شعرت بلهفة أكبر بعد أن علمت أنها تحبه.

مهما كان مبلغ تحكمها في مشاعرها، فقد انطلقت هذه من عقالها الآن، بعد أن طال شوقها إلى هذه اللحظات.

انتهى عناقهما أخيراً وراحا يتبادلان النظرات، قال نيكولاس بصوت أجش: «ما ينقص هذه الحديقة هو بيت صيفي فيه وسائد كثيرة. إذا كان هناك بيت مريح ومنعزل، هل ستقولين لا هذه المرة بعد أن أصبحنا نعرف بعضنا البعض بشكل أفضل؟».

مالت إلى الخلف بين ذراعيه، وهي ما زالت تنظر في عينيه: «لكن تلك المعرفة ما زالت غير كافية. وأنا لا أحب العلاقات العابرة!».

أنزل ذراعه من حولها وتراجع إلى الخلف: «الأفضل أن نذهب ونتناول الغداء ثم نتحدث عن هذا الموضوع بهدوء. ولكن أولاً عليّ أن أقفل البيت هنا. تعالي...».

وأمسك بيدها وكأنه يمسك بيد صبي وعاد بها إلى البيت. بعد نصف ساعة أوقف سيارته أمام مطعم يقع في قرية صغيرة في طريق جبلي يطل على الساحل. كان الزبائن الوحيدون في ذلك المطعم

زوجين عجوزين جلسا خارجاً تحت مظلة مخططة، فيما جلس ستة عمال إسبان حول مائدة في الداخل.

اختار نيكولاس مائدة في الخارج تبعد عن مائدة الزوجين قدر الإمكان. وبعد أن قررا ما يأكلانه، قال: «والآن أخبريني، ما الذي يجعلك تخشين إقامة علاقة عاطفية؟».

ـ ليس هناك الكثير. عندما أصبحت في العشرين وقعت في الحب... أو هكذا خيّل إليّ. وكاد ينتهي الأمر بكارثة، فقد تبين لي أن من أحببته أراد أن يستغلني ليتباهى أمام أصدقائه فقط. وبعد ذلك قررت أن أبقى عزباء.

بعد أن تحدثت عن سنتين من العذاب، حبست أنفاسها خوفاً من أن يخبرها أن حبيبها ذاك كان غبياً وأنّ علاقتهما ستكون رائعة. لكن الارتياح تملكها حين لم يفعل ذلك.

استند إلى الخلف مفكراً: «أظنك تسمحين لتجربة سيئة بأن تؤثر على حكمك. فالحياة هي لاكتساب التجارب لا لرفضها. ذلك الرجل الذي كان أول من أحببت.. هل كنت أنت أول امرأة عرفها؟».

ـ لا أدري، ولا أظن ذلك، فقد كان في الثالثة والعشرين.

ـ هل أخبرته، بلباقة وليس بصراحة، بأنه جعلك تنفرين من العلاقة مع الجنس الآخر؟

ـ شعرت بأنه إذا لم يكن يعلم، فلا فائدة من أن أخبره.

ـ وهكذا فضّلت التراجع والاحتماء خلف خطوطك الدفاعية كما يقول المثل. من أين جاء هذا المثل؟

ـ لا أدري. سأحقق في أمره. وهذا يذكرني بالرسالة التي أرسلتها إليّ عبر الإنترنت عن دار نشر إدموند بروك... قارنت الموقع بموقع شركة «هارلكان» فكيف عرفت بروايانها؟ هل تقرؤها إحدى شقيقاتك؟

ـ حسب علمي، شقيقاتي لا يقرأن أبداً إلا مجلات الأزياء. عرفت

كتب «هارلكان» في سان فرانسيسكو من مؤتمر على شاشة الإنترنت. إذا أراد الرجال أن يقرأوا كتب المغامرات، فهم يفعلون ذلك دون اهتمام بمن يراهم بعكس النساء اللواتي يقرأن الروايات العاطفية.

- إنه عالم الرجال. ولسبب ما، القصص التي تحتوي على الجرائم والعنف مقبولة اجتماعياً أكثر من القصص التي تتحدث عن العلاقات العاطفية.

- هل تقرئين الروايات العاطفية سراً تعويضاً عن أحلام لم تتحقق؟

فقالت بمرح: «أنا نادراً ما أقرأ روايات من أي نوع. ولم أتخلَّ أبداً عن الأمل في (أن تتحقق الأحلام) في النهاية. ولهذا، لم أقم علاقة معك يا نيكولاس. إذا جاء الرجل المناسب، أعتقد أنه سيكون مسروراً لأنني انتظرته، وفكرت فيه. عندما تريد أن تتزوج، هل تحب أن تكون المرأة التي تختارها زوجة قد عرفت سلسلة طويلة من العشاق في ماضيها؟ كن صادقاً».

عند هذه النقطة وصلت السلطة مع الخبز.

وعندما أصبحا وحدهما مرة أخرى، قال نيكولاس: «من غير المعقول أن أتوقع من زوجة المستقبل ألا تكون قد عرفت أي علاقة عاطفية. هناك فرق بين أن يخوض المرء في علاقات عابرة، وبين أن يعرف علاقات، وإن لم تكن دائمة، إلا أنها قائمة على الحنان والمودة. الإخلاص بعد الزواج أهم بكثير من التفتش قبله. أظنك تتخذين من (الرجل المناسب) عذراً لكي تتجنبي الحكم على الأمور... لأنك أخطأت من قبل في ذلك».

- لقد... أظهرت انجذابي إليك. لكن العقل يخبرني بأن من الخطأ تجاوز الصداقة بيننا. وأنا أرجو ألا أبقى في هذه البلاد طويلاً، فقد رأيت وظيفة محررة في أحد مواقع نشر الكتب على الإنترنت هذه الصباح. وإذا ساعدني الحظ، سأحصل عليها وعندئذ أعود إلى لندن ثم

لا نلتقي بعد ذلك... إلا نادراً.

- لندن غير بعيدة بالطائرة، وأنا أقصدها عدة مرات في السنة.

- ربما. ولكن عندما يكون كل منا مستقراً في بلد مختلف، لا معنى لوجود علاقة بيننا، إلا إذا كنا مجنونين حباً ببعضنا البعض، ونحن لسنا كذلك. والآن أخبرني بالمزيد عن صديقك، ما هو عمله الذي يعيش منه؟ ولماذا كانت زوجته تعيش في غرناطة عندما تعارفا؟

- سيمون يعمل في إدارة الأراضي والأملاك. ووالد كاسيا كان رساماً، والشوارع الضيقة والسلالم القديمة تجذب الفنانين دوماً. لو كنت قبلت دعوة سيمون إلى العشاء لحدثتك زوجته عن قصة تعارفهما. هل كنت تقولين الحقيقة حين قلت إن جوانيتا غير قادرة على أن تنوب عنك؟ أم هو مجرّد عذر مهذب؟

فاعترفت قائلة: «شعرت بأنني سأكون متطفلة، فأنت تعرفهما منذ وقت طويل ولديكم الكثير لتتحدثوا عنه».

- أنا لا أعرف كاسيا جيداً، وستكونين رفيقة جيدة لها. يمكنكما أن تتحدثا معاً بينما أسأل أنا سيمون النصيحة. لديكما اهتمامات متشابهة أكثر مما لدي معها. لماذا لا تغيرين رأيك وتأتين معي؟

ترددت، لكن التعقل ذكّرها أنه رغم عدم وجود ضير في الذهاب معه إلى العشاء، إلا أن إعادتها إلى بيتها قد تكون محفوفة بالمخاطر. فقد تضعف إرادتها إذا ما عانقها عند المساء، مودعاً، فتعترف له بحبها.

كان من الصعب عليها التحكم في نفسها في ضوء النهار، وسيكون ذلك أصعب في الليل.

وأخيراً أجابت بحزم: «أفضل أن لا أذهب».

بدا عليه مزيج من الحيرة والاستسلام، وقال يغيّر الموضوع: «لو لم يكن لديّ مشروع خاص لبيت «لاسوليراد» لبعته لسيمون لمشروعه

لأولاده. إنه يريد أن يوسعه، لأن إيجاد الأملاك المناسبة غير سهل».

بعد ذلك أخذا يتحدثان عن أشياء غير شخصية. وأثناء العودة لم يكادا يقولان شيئاً، فقد استغرق كل منهما في أفكاره الخاصة. تساءلت كالي عما إذا كانت حمقاء في رفضها نيكولاس. إنه يريدها وهي تريده. لكنه لا يشعر نحوها بالحب، وإنما بالرغبة فقط. وهذا سيسبب لها الألم. بدا أن اهتمام نيكولاس مركّز تماماً على الطريق الجبلية الملتوية. رمقته كالي بنظرة جانبية وهي تتذكر عناقه الرائع.

كم سيكون جميلاً أنه يشعر نحوها بالحب كما هو حالها!.

تذكرت ما قاله لها الرجل العجوز الذي تحدث إليها هذا الصباح: (استمتعي بشبابك وأنت صبية وإلا سترين نفسك أصبحت مثلي دون أن تنتبهي).

وها هي قد تجاوزت منتصف العشرينات من عمرها، وبعد وقت قصير سوف تتجاوز الثلاثين وقد لا تسنح لها الفرصة مرة أخرى بالتعرف إلى رجل بالغ الجاذبية كهذا الرجل الذي يجلس الى جانبها. وتساءلت عما سيفعله إذا أعلنت فجأة أنها غيرت رأيها.

رغم أن نيكولاس كان يقود سيارته بما تتطلبه الطريق من اهتمام، إلا أنه كان يعيد النظر في الطريقة التي أساء فيها معالجة علاقته بكالي.

لقد عانقها مرتين، وفي المرتين بدا متسرعاً بالنسبة إلى المرأة التي لا تشبه أي امرأة عرفها قط. كان متأثراً وحانقاً من عزمها على عدم إقامة علاقة عاطفية، بانتظار مجيء «الرجل المناسب»، معتبرة رغم اتصالها الحميم باسبانيا، أن ذلك الرجل سيكون إنكليزياً.

ألقى نظرة على وجه كالي وهي تنظر من النافذة. وتساءل عما تراها تفكر فيه وعما إذا كانت الآن مصممة ألا تدعه يضع إصبعاً عليها مرة أخرى. صباح هذا اليوم كان ينوي أن يطلب منها قضاء عطلة عيد الميلاد معه في «أربيج»، وهي منطقة رائعة الجمال لم تُكتشف بعد تقع

في فرنسا شمال جبال البيرينيه.

الإقامة هناك مع كالي، السير معاً على التلال يومياً، السهر تحت ضوء النجوم، وتبادل العناق في سكون الليل سيكون رائعاً لهما معاً. لكنه لسوء الحظ، أفسد فرصته عندما كانا في حديقة المنزل «لاسوليراد». لقد ساعدته الأفعى في الحصول على الفرصة للإمساك بها... وبدلاً من أن يرضى بذلك حالياً، ذهب بعيداً. الإشارة إلى ما كان يمكن أن يقوما به في بيت صيفي غير موجود، كان خطأ شنيعاً. وأياً كان ذلك الأحمق الذي أفسد حياتها منذ البداية، فهو يستحق الشنق. لاعجب من خوفها من الخذلان مرة أخرى.

لم يشعر نيكولاس قط من قبل بمثل هذه الرغبة في حماية امرأة. باستثناء اندفاعه لمساعدة كبار السن، أو الدفاع عن الفتيات الصغيرات إزاء خشونة الصبيان، كان يعتقد أن كل أنثى بين هذين الطرفين المتضادين من الحياة بإمكانها الدفاع عن نفسها جيداً.

لكن كالي مختلفة. فهي، حسب علمه، أمضت معظم حياتها في العناية بوالديها بدلاً من أن يهتما هما بها. والآن عليها أن تمضي عطلة العيد كأي مستخدم، بدلاً من أن تمضيه بسرور ومرح مع أصدقائها، وأزعجه ذلك إلى أقصى حد.

راح يتساءل عن مبلغ اهتمام والديها بمشكلة وظيفتها، أتراهما يتمنيان أن لا تتمكن من العثور على وظيفة أخرى، علّها تبقى هنا وتدير هذا النزل بشكل دائم، لكي يتفرغا للعب الغولف والبريدج؟

- إذا أنزلتني عند الزاوية قرب المدرسة، فسيكون ذلك أفضل. أشكرك على الغداء يا نيكولاس. كان المكان لطيفاً. سألصق إعلاناً على هذا الجدار فقد يراه بعض القادمين الى القرية ويرغبون في تجربة نزلنا.

امتثل لما طلبت وأوقف سيارته قرب مدرسة القرية، ثم قفز منها

لكي يفتح لها الباب، لكنها كانت قد نزلت عندما وصل. فقالت: «أشكرك مرة أخرى على الغداء... أرجو أن تستمتع بسهرتك».

ومنحته ابتسامة زائفة لأنها كانت تشعر برغبة في البكاء. ربما لن يرغب في رؤيتها أبداً بعد هذا النهار. وماذا يفعل الرجل بعد مثل هذا الرفض الكامل؟

- بكل سرور. علينا أن نكرر ذلك مرة أخرى.

لكنها كانت واثقة أن تلك مجرد كلمات مهذبة لا يمكن أن يعنيها.

في اليوم التالي زارت كالي جدة دولوريس مارتيني لتسألها عن عملها في منزل «لا سولیداد».

كانت المرأة العجوز تجلس في فراشها مستندة إلى الوسائد وحول كتفيها وشاح صوفي أسود.

بعد التحيات والمجاملات، ابتدأت كالي تقول: «سمعت أنك عملت عندما كنت صبية، في البيت الكبير المسمى «لا سولیداد» في الناحية الأخرى من الوادي. أتتذكرين كيف كان شكله حينذاك؟».

أشرق وجه العجوز، ربما سروراً باستعادة ذكرياتها: «أنا أتذكره جيداً، أكثر مما يمكنني أن أتذكر ما حدث السنة الماضية. فالسنوات أصبحت متشابهة الآن، لكن عندما كنت شابة، كانت الأيام مليئة بالأحداث. لا أدري لماذا يسمون ذلك البيت «لا سولیداد» ومعناه المنعزل، فقد كان دوماً مليئاً بالناس، خصوصاً عندما تأتي الأسرة من مدريد. كانت أسرة كبيرة وغالباً ما كان الأصدقاء يأتون أيضاً...».

ولم تعد المرأة تستطيع التوقف عن الحديث، وتمنت كالي لو أحضرت معها آلة التسجيل الصغيرة. بعد حوالى نصف ساعة استغرقت العجوز في النوم فجأة، فخرجت كالي من الغرفة على أطراف أصابعها، ثم سألت الحفيدة إن كان بإمكانها أن تأتي في يوم آخر.

- بكل تأكيد وستى شنت، لأن الحديث مع الآخرين ينفعها. لقد

سمعنا كلنا حكاياتها الآف المرات.

حالما وصلت كالي إلى بيتها، طبعت كل ما استطاعت أن تتذكره من ذكريات المرأة العجوز، فهي تريد أن تبعد أفكارها عن مشكلتيها الأساسيتين، تعطلها عن العمل وحبها لنيكولاس. والعمل على تدوين قطعة من التاريخ الإجتماعي يمنحها شيئاً آخر تفكر فيه. قد تصلح هذه الذكريات للبيع، أو على الأقل تستحق الحفظ في أرشيف التاريخ المحلي، إذا كتبتها بشكل مناسب.

فتحت بريدها الألكتروني ذلك المساء، وإذا بين الرسائل واحدة من نيكولاس لوركا، وموضوع رسالته هو حفلة.

وقرأت كالي: «أريد أن أرد ضيافة آل دربدن قبل أن أذهب في عطلة العيد. سأقيم حفلة لمناسبة «عيد دستور إسبانيا»، أرجو أن تتمكّن أنت ووالداك من القدوم عند الساعة الثامنة والنصف. نيكولاس».

أدهشتها الدعوة، فقد ظنت أنها لن ترى نيكولاس مرة أخرى، إلا إذا حصل ذلك مصادفة في الشارع. كما دهشت أيضاً لدعوته والديها، فقد حدثتها غريزتها بأنه لا يحبهما، لكنها لم تفهم سبب تلك الكراهية.

حدثتها نفسها بأن ترفض من دون أن تخبر والديها. لكنها أدركت أن هذا يقود إلى أحد تلك المواقف المليئة بالأكاذيب المتشابكة، والتي من الأفضل عدم البدء بها.

وبعد أن أخبرتهما بأمر الدعوة، أجابته عبر الإنترنت: (شكراً، يسرنا جميعاً القدوم إلى حفلتك).

ذلك المساء، استدعتها أمها لترد على الهاتف، قائلة لها وهي تسد السماعة بيدها: «إنه شخص يدعى لويس ويريد رقم تليفونك في لندن».

فقالت باستغراب: «لويس».

ثم تذكرت الرجل الذي تعرفت إليه في حفلة آل دريدن. فأخذت السماعة: «هالو لويس. كيف حالك؟».

- مسرور جداً لسماعي أنك هنا ولست في لندن، سأزور لندن في عيد رأس السنة فأردت أن أتصل بك لأدعوك إلى الغداء أو العشاء. ولكن بما أنك هنا وأنا سأذهب من ڤالنسيا إلى أليكانتي غداً، فقد أظفر بصحبتك. هناك مطعم جيد، وقد جربته من قبل.

وقبل أن تجد وقتاً لتجيبه، قال: «هناك أمر هام للغاية أود أن أخبرك به، وهو يتعلق بشخص نعرفه نحن الإثنان».

فكرت في أن الشخص الوحيد الذي يعرفانه معاً هو دريدن. لكن لويس أضاف: «إنه الشخص الوسيم الذي كان على مائدتنا في حفلة عشاء ليونورا».

- نيكولاس لوركا؟

- نعم لوركا. ولكن لا تسأليني الآن ماذا عرفت عنه. تصلح هذه المعلومات لأن تكون عنوان الصفحة الأولى في الجريدة، إذا شاع خبر إقامته في قريتك. أما أنا فأطمع فقط برفقتك على الغداء. كل ما سأقوله الآن هو أن تقديمه لنفسه عندما تعارفنا أضخم تبخيس للشأن سمعت به في حياتي.

لم تعجبها طريقته في الضغط عليها لتتناول الغداء معه. رغم أنها وجدت رفقته مقبولة تماماً، إلا أنها لا ترغب في رؤيته مرة أخرى، لكنها أيضاً مليئة بالفضول لمعرفة ما اكتشفه عن نيكولاس.

كان ينتظرها عندما وصلت إلى موعدهما في المدينة في الشارع الساحلي الرئيسي. وعندما استقرا حول المائدة سألته: «ما الذي يأخذك إلى أليكانتي؟ معرض فنون؟».

فأومأ: «دُعيت إلى حفلة الافتتاح لمهرجان فني في «قصر سانتا

باربارا». سأذهب إلى بيتي غداً وربما بعد غد. ظننتك ستعودين إلى إسبانيا في عطلة عيد الميلاد، ولكن ليس بهذه السرعة».

- أنا أغير وظيفتي، ووظيفتي الجديدة لن تبدأ قبل رأس السنة.

شعرت بأن هذه الكذبة البيضاء مسموح بها، ولم تكن تريد أن تتحدث عن وضعها العملي معه. لم يتكلما عن نيكولاس إلا بعد أن انتهيا من تناول الطبق الرئيسي. قال لويس: «أنت تسيطرين على فضولك، كثير من النساء كن ليسألنني عما عرفته قبل الآن بكثير».

- ربما لست فضولية. ما الذي جعلك تظنني بحاجة إلى طعم لأتغدى معك؟

فقال بشيء من الحزن: «لأن الوهم لا يتملكني، فأنا لست مثل نيكولاس لوركا الذي يمكنه الحصول على المرأة التي يريدها».

فقالت ساخرة: «أشكّ في هذا. ما الذي جعلك تظن ذلك؟».

- مظهره، شخصيته، وحقيقة أنه بليونير.

- قد يكون غنياً جداً، ولكن بليونير؟ ؟ لا أصدّق.

- مجلة «تايم» ذكرت هذا. طلبت من أمين مكتبة عامة أعرفه أن «ينقب» عنه لأجلي، والنتيجة كانت مذهلة. ما ذكره لوركا عن عمله في تغذية شبكة الإنترنت ما هو إلا واحد فقط من مشاريعه. في السنوات العشر الأخيرة أنشأ نصف دزينة من الشركات، وآخرها شبكة تصل معظم المدن الإسبانية الكبرى بشبكة من المعلومات الصوتية، أنا لا أفهم تلك التقنية لكن ربما تفهمينها أنت.

فهزت رأسها: «بشكل غامض فقط».

- يبدو أن لوركا كان يحاضر في معظم المؤتمرات الاقتصادية الدولية. إنه مبتكر، رجل يُحسب حسابه.

- هل عرفت لماذا يقيم حالياً في هذه المنطقة؟

- لا، لم أعرف. إما أن ذلك أمر شخصي، وإما أنه لم ينتشر بعد.

هل رأيته بعد حفلة العشاء تلك؟

فترددت: «لقد تغدينا معاً، لكنني لا أتوقع رؤيته مرة أخرى».

- ربما هذا أفضل. أمثال لوركا ليسوا مثلنا، لقد عرفت عدة رجال من طرازه وهم لا يصلحون لإقامة علاقات دائمة، فهم طموحون جداً، ويركزون اهتمامهم على أعمالهم. كما يميلون أيضاً إلى الزواج عدة مرات، أو اتخاذ سلسلة من الخليلات.

- ليس عليك أن تحذرني، يا لويس، فأنا لست فتاة سريعة التأثر أو في العشرين من عمري. وأنا واعية تماماً إلى أن نيكولاس يعيش في عالم مختلف عن عالمي.

وتابعت لتغيّر الموضوع: «هل اكتشفت أياً من الفنانين الجدد، مؤخراً؟».

على ضوء معلومات لويس، ازداد ندم كالي لعدم رفضها دعوة نيكولاس إلى حفلته.

تساءلت السيدة هيغ وهي تهمّ بالخروج مع زوجها وابنتها إلى منزل نيكولاس: «من تراه يطهو الطعام له يا ترى؟ تقول جوانيتا إن امرأة تدعى أليسيا كانت ترعى المكان عندما كان كاميرون فيلدينغ أعزب. لكنني لا أدري إذا كانت تقوم بذلك الآن، أظن جوانيتا وأليسيا ليستا على وفاق. إنها لم تذكر السبب لكنني رأيت ذلك التعبير على وجهها».

لم تعلق كالي بشيء. كان توترها يزداد بالنسبة إلى السهرة القادمة، هل سيكثر والدها من الكلام والتباهي؟ هل ستختار أمها هذه الليلة لتفصح عن آرائها المتطرفة؟ لماذا تهتم إلى هذا الحد بأن يتركا انطباعاً جيداً؟ إذا كانت ابنة طيبة حقاً، عليها أن تهتم ما إذا كانا سيحبان الأناس الآخرين، لا العكس. هذا ما كانت ستشعر به لو أن جدتها هي التي سترافقها إلى الحفلة، ولكنها لا تشعر بذلك نحو أمها وأبيها؛

معهما تشعر وكأنها أم برفقة ولدين قد لا يتصرفان بشكل جيد تماماً...

انتعش أملها في أن كل شيء سيكون على ما يرام عندما قال أبوها لأمها: «تبدين جميلة المظهر الليلة يا عزيزتي. هل هذا ثوب جديد؟».

لكن أمها قالت بجفاء: «يا ليوم السعد! عمر هذا الثوب عشر سنوات. أترى كم أنت قوي الملاحظة؟».

فقالت كالي بسرعة: «أنت تعلمين أن الرجال لا يلاحظون التفاصيل يا أمي. إنهم يأخذون انطباعاً عاماً، ومظهرك جميل الليلة».

شخرت الأم ساخرة فازداد توتر كالي. يكفي ما ستشعر به من ضيق وتوتر مع نيكولاس، حتى يكون عليها أن تراقب والديها أيضاً! فكرت بذلك وهي تحاول نسيان ما حصل في منزل «لا سوليداد».

عندما اتجهوا إلى الشارع الذي يسكن فيه نيكولاس اضطروا إلى السير على رصيف ضيق كي يفسحوا الطريق لسيارة تمرّ بقربهم. كانت سيارة فخمة، وتساءلت كالي عما إذا كان ركابها ذاهبين إلى الحفلة هم أيضاً. وظهر أن هذا صحيح فعندما وصلت مع والديها إلى الباب كان الزوجان قد وصلا في الوقت نفسه.

قدم الزوج نفسه وزوجته باسم إنريك وأنجيل غونزاليس، بينما قدمت كالي نفسها ووالديها، مدركة أن والدها لن يفعل ذلك. كانوا ما زالوا يتصافحون عندما فتح نيكولاس الباب ليرحب بهم.

كان آل دريدن قد وصلا. وبعد مزيد من التعارف، شكّل الرجال الثلاثة مجموعة، وكذلك النساء الثلاث الكبيرات في السن فقد شكلن مجموعة أخرى، وأخذت كالي تحدق إلى اللوحة الرائعة التي تغطي المكان الخالي فوق المدفأة. سألته وهو يقدم لها كوب العصير: «هل هذه من رسم «سورولا»؟

- نعم، هل أعجبتك؟

- إنها رائعة. أنا أحب كل رسومه، خصوصاً «اللكابالو

بلانكو» . . . صورة غلام عارٍ يلبس قبعة من القش وهو يخرج حصاناً أبيض من البحر.

ـ فيما مضى، كانت هذه اللوحة معلقة على جدار غرفة الاستقبال في بيت «لا سوليداد»، وربما أعيدها إلى هناك عندما يعود البيت صالحاً للسكن.

ووجه الحديث إلى أمها: «كنت متغيبة عندما أقمت عندكم ليلتين، يا سيدة هيغ. هل علمت شيئاً عن الرجل الذي أخذوه إلى المستشفى؟».

ـ سمعنا أنه تعافى.

وبعد حديث قصير قالت: «هل يمكنني أن أمدّ يد المساعدة؟ الضيافة صعبة بالنسبة إلى رجل يعيش وحده».

ـ شكراً، ولكن لا ضرورة لذلك، كل شيء تحت السيطرة، فقد عثرت على مطعم ممتاز يرسل إلي الطعام. وقد أحضروه وأعدوا كل شيء. المعذرة، هناك من يقرع جرس الباب.

بعد لحظات، عاد مع ضيفين هما الزوجان اللذان تعرفت إليهما كالي في معرض الحرف والفنون. زوجة سيمون الإنكليزية بدت اليوم أروع ببنطلون حريري بسيط وبلوزة مطرزة من الشيفون. حالما تمّ التعارف، تقدمت من كالي: «كنت أرجو أن أراك هنا. سنعود إلى مدريد غداً فأردت أن أراك مرة أخرى».

تأثرت كالي بحرارة عواطفها وشعرت نحوها بشعور مماثل.

عندما فتح نيكولاس باب غرفة الجلوس رأت المائدة جاهزة لحفلة عشاء، والحاجز الذي يفصل الغرفة عن المطبخ قد تحوّل إلى مقصف تعلوه الأطعمة الشهية. لو أن أباها هو المضيف، لترك الضيوف يجلسون حيث يشاؤون. لكن بطاقات الأماكن أشارت إلى أن نيكولاس خطط لأمر ما. فقد جلس وأمها إلى يمينه والسيدة دريدن إلى يساره،

وعند الطرف الآخر من المائدة كانت كاسيا موندراغون والسيد هيغ إلى يمينها وتود دريدن إلى يسارها. أما كالي فكانت بين إنريك والسيد دريدن مع أنجيل أمامها. كان الثلاثة محدثين جيدين ما جعلها تسترخي وتمتع نفسها، رغم أنها لم تستطع منع نفسها من مراقبة أبيها متسائلة كيف حال أمها مع مضيفهما والسيدة دريدن.

وسرعان ما وافق الجميع على أن متعهد الطعام الذي عثر نيكولاس عليه كنز، فقد كان الطعام لذيذاً للغاية. بعد أن انتهى العشاء، أخذ سيمون ونيكولاس يدوران بالقهوة والشراب للضيوف الأكبر سناً. وفي غرفة الجلوس قالت كاسيا لمضيفها: «أنا أحب التفرج على بيوت الآخرين. هل هناك بأس في أن نجول أنا وكالي في الأنحاء؟».

ـ لا بأس، اذهبي حيث تشائين.

عندما ذهبتا إلى الردهة، قالت كاسيا: «أولاً، يجب أن أذهب إلى الحمام. هل ذلك الاتجاه يؤدي إلى سلم الطابق السفلي؟».

وعندما ذهبت، أخذت كالي تنظر إلى اللوحات والصور الفوتوغرافية على جدران الردهة. جالت هي وكاسيا في البيت، وعندما حانت فرصة قالت لها: «أخبرني شخص منذ أيام أن نيكولاس أشهر مما يبدو عليه».

ـ آه نعم. إنه اسم كبير في مجال عمله. ولكن الإنسان لا يدرك ذلك من تصرفاته. إنه لا يتباهى بنبوغه أبداً، وسيمون يمضي معه كثيراً من الوقت.

وفهمت كالي أن هذا ينمّ عن تقدير كبير في نظر كاسيا. سألتها كاسيا: «هل تكنّين له مودة؟».

ـ لم أعرفه منذ وقت طويل، ولكن، نعم. يبدو أنه بالغ اللطف.

وتساءلت عما ستقوله كاسيا لو أنها تعترف لها بحبها اليائس له.

كانت كالي ووالداها أول الخارجين، وفي الطريق إلى البيت

سألت كالي أمها: «هل أعجبتك السهرة؟».

ـ أود أن أعرف كم كلّفهم ذلك المقصف. فقد بقي الكثير من الطعام. ليت بإمكاننا أن نطلب شيئاً للكلاب، فأنا أكره تضييع الطعام سدى.

كبحت كالي آهة. هكذا هي أمها دوماً، فبعد أن أمضت سهرة سارة في بيت جميل بين أناس ممتعين، ها هي تعود الى ردات فعلها السلبية. كم كانت الجدة الحبيبة مختلفة عنها!

ثم قالت: «أنا واثقة من أنه لن يضيع سدى لأن نيكولاس سيأكل الباقي».

* * *

ـ ليونورا دريدن امرأة مسلّية للغاية. أما السيدة هيغ فلم تعجبني. تبدو غير راضية دوماً.

قال سيمون هذا وهو يبتعد عن قرية الرايكاراسكا. فقالت كاسيا: «ربما الذنب ذنب زوجها، فموضوعه الوحيد هو لعب الغولف. من حسن الحظ أن تود كان إلى جانبي الآخر، فهو رجل مسلٍّ للغاية. ماذا بإمكان كالي أن تفعل إذا كان والداها مملين. إنها فتاة لطيفة وقد وجدت أننا نستمتع بقراءة الكتب نفسها، لكنني لم أستطع أن أعرف شعورها نحو نيكولاس».

ـ وأنا لم أر ما يثبت رأيك في شعوره نحوها. حقيقة أنه لم يأت على ذكرها حين تعشى معنا تلك الليلة، تدل على أنه لا يهتم بها. أما تفسيرك بأن هذا من علامات الحب، فهذا ما لا أفهمه.

ـ لكنك لم تفهم أنني كنت أحبك يا حبيبي الغبي. الرجال ميئوس منهم في اكتشاف ذبذبات الحب. طبعاً ذلك ليس سهلاً بالنسبة لمن يحب، فأنا أيضاً لم ألاحظ أنك كنت تحبني. ربما أنا مخطئة بالنسبة إلى نيكولاس. لعله مفتون بها على طريقة «أحبها وأبتعد عنها».

* * *

٩ ـ عقلها كبير، لكن قلبها أكبر

في صباح اليوم التالي، قالت ليونورا لزوجها فيما هما يتناولان فطورهما: «لديّ شعور بأن كالي تحب نيكولاس».

ـ كثيرات من الفتيات يحببنه. ما الذي جعلك تظنين ذلك؟

ـ من النظرات التي كانت ترمقه بها... هو أيضاً كان يرقبها بنظرات ذات معنى. ولكن إذا كان بينهما علاقة، فهي التي ستتألم في نهايتها.

ـ إنها فتاة لطيفة وقد لا تنتهي علاقتهما أبداً.

حديث تود معها الليلة الماضية جعله يدرك أنها غير عادية.

ـ نيكولاس لن يتزوجها. زواج أميرة اسبانية من لاعب كرة سلة لا يعني أن غيرها من الأرستقراطيين يمكن أن يتزوجوا من عامة الناس.

ـ أشك في أن يعتبر نيكولاس نفسه أرستقراطياً، كما أن أمه لم تهتم بالتقاليد، وهي معروفة بعلاقاتها برجال غير مناسبين.

ـ لن يرتبط بفتاة مثل كالي. صحيح أنها متذوقة للجمال وربما يدرك هو ذلك، لكنها مثقلة بوالدين بليدين، مملين.

فقال يذكّرها مداعباً: «والداك كانا غريبي الأطوار أنت أيضاً، لكنني اتخذت الاحتياطات كيلا تصبحي مثلهما».

فضحكت: «لا أظن أن نيكولاس طائش كما كنت أنت. فالرجل الذي يبقى أعزب إلى هذه السن، لا يلقي بنفسه إلى الحياة الزوجية

بخفة كما فعلنا نحن في العشرينات من عمرنا».

***

على العكس من سعاة البريد في إنكلترا، لم يكن ساعي البريد يرتدي بذلة رسمية ويقود سيارة مركز البريد بل كان يرتدي ثياباً عادية ويقود سيارته الخاصة. وعندما يحمل رسالة إلى نزل «كازا رورال» فهو يدفع الباب ثم يضعها على المنضدة القريبة، لكنه الآن يريد توقيع المستلم ولهذا رن الجرس. راح قلب كالي يخفق بسرعة ما إن رأت الدمغة على الغلاف: «دار نشر كارلس تأسست سنة ١٧٨٤». وكانت هذه آخر دور النشر المستقلة الباقية في لندن، وهي ذات سمعة طيبة.

كانت الرسالة في الداخل مطبوعة على الآلة الكاتبة لكن بدايتها وخاتمتها قد كتبتا بخط اليد:

«عزيزتي الآنسة هيغ،

لقد وصلتنا افتتاحية مسودة كتاب من تأليف السيد رايس ماك غريغور، ويهمنا أن نرى المزيد من هذا العمل. وقد اتصلنا بالمؤلف الذي أخبرنا...».

قرأت كالي الصفحة الأولى وابتدأت تقرأ الثانية. كانت الرسالة موقعة باسم روبرت كارلس الذي عرفت أنه من سلالة مؤسس الشركة.

ما استنتجته من هذه الرسالة أن رايس أخبرهم عن الوضع المتدهور في دار «إدموند بروك» وانه يريد أن يغير الناشر ولكن ليس المحررة.

وبدا لها أن هذا شرط جريء لمؤلف لديه كتاب واحد. وربما ما كان ليُقبل لولا أن زوجة صاحب الدار، اللايدي كارلس، تلقت كتاب رايس «نهر الحياة، الموت والحب» كهدية عيد مولد ونصحت زوجها به، ولولا أن دار النشر فقدت، بشكل غير متوقع، أحد محرريها. باختصار، ما يريدونه هو مقابلة كالي، عارضين عليها وظيفة.

شعرت كالي، لعدة دقائق، بأنها في الجنة. العمل في دار كارلس هو حلم يتحقق. ولطالما كانت تمرّ أمام الدار فتتشوّق لرؤية غرفة الاستقبال الشهيرة حيث كان يتم الاحتفاء ببعض أكبر الأسماء في الأدب الإنكليزي، وذلك طوال مئتي عام. ثم.. فجأة، هبطت إلى الواقع. حصولها على الوظيفة يعني ذهابها إلى لندن وعدم رؤية نيكولاس مرة أخرى إلا مصادفة عندما تزور والديها.

أملى عليها المنطق أن تتصل بروبرت كارلس وتحدّد مع سكرتيرته موعداً للمقابلة خلال الأسبوع القادم. أرسلت رسالة عبر الإنترنيت لرايس لتهنئه على إثارته اهتمامهم بكتابه الجديد، ولتشكره على إصراره على أن تحرره هي بنفسها. وأخيراً حجزت في الطائرة إلى لندن.

في الليلة السابقة لرحيلها، اتصل نيكولاس بها: «أود التحدث إليك. هل تأتين إلى هنا أم أذهب أنا إليك؟ أم نجتمع معاً في مقهى؟».

فقالت: «علينا أن نجتمع في الخارج، النزل مليء بالناس ولن نستطيع سماع أنفسنا حين نتحدث».

ـ حسناً، سأكون بانتظارك في المقهى بعد نصف ساعة.

وافقت كالي ووضعت السماعة متسائلة عما يريده.

عندما وصلت الى المقهى كان نيكولاس قد سبقها إليه. ولم يضيّع وقتاً فقال: «إذا كنت لا تزالين بحاجة إلى وظيفة فلدي وظيفة أقدمها لك. سنكون بحاجة إلى محرر لتنظيم النصوص قبل وضعها على الانترنت، لأ يستطيع الكثير من التقنيين التعبير وإيصال أفكارهم، وأنت مؤهلة تماماً لهذا العمل الذي نعرضه عليك».

أوشكت أن تخبره عن وظيفة كارلس لكنها عادت فقررت ألا تفعل: «متى تريدني أن أبدأ؟ وكم ستدوم الوظيفة؟».

ـ في خلال شهر، وسنقدم إليك عقداً لسنة. وإذا سارت الأمور

بشكل جيد، سيجدد العقد سنة أخرى.

- هل يمكنني الحصول على بعض الوقت للتفكير؟

- سأمنحك أسبوعاً. سيكون عليك أن تأتي إلى مدريد وتقابلي أحد زملائي قبل توقيع العقد.

- أين سيكون مركز العمل؟ فسيستغرق إصلاح المنزل «لا سوليداد» وقتاً طويلاً.

- إلى أن يصبح جاهزاً عليك أن تعملي في أمكنة مختلفة. هنا... في مدريد... وربما في أميركا، هذا لا يزعجك أليس كذلك؟ لن يكون عليك أن تقلقي بشأن السكن. سنتدبر الأمر.

- لا. التنقل لا يزعجني. فقد تنقلت طوال حياتي، والسنوات الست التي أمضاها أبواي في الريكاراسكا هي أطول مدة أمضيناها في مكان واحد.

- أتظنينهما ثبتا هنا؟ هل تعبا من التنقل؟

- أرجو ذلك، ولكن من يدري.

- ربما أمرهما يقلقك كثيراً. إنهما فقط في الخمسينات من عمرهما، وضعف الشيخوخة ما زال بعيداً عنهما.

- ألم تقلق قط على أبويك؟

- أبداً! أنا في الواقع لا أقلق كثيراً، إذ لا فائدة من ذلك. إذا كان ثمة مشكلة بإمكاني حلها، أفعل. أنا لا أؤمن بالأرق لأجل أي شيء.

- لا يملك الكثيرون ثقتك. أنت مسيطر على حياتك بعكس أكثر الناس.

- ما من أحد يسيطر على حياته تماماً، يا كالي. هناك دوماً مفاجآت غير سارة في الحياة، لكن على الإنسان أن يثق بنفسه لكي يستمر.

ومال نحوها باسماً: «أنت لم تسألي عما يهتم به أكثر الناس

بالنسبة إلى الوظيفة الجديدة».

فقالت بارتباك: «عما أسأل؟».

- الراتب، ألا تريدين أن تعرفي ما هو الراتب؟

فقالت شاعرة بحماقتها: «عندما يكون الشخص عاطلاً عن العمل، لا يقلق بشأن الراتب. لكن ما هو الراتب الذي تقدمه؟».

عندما أخبرها، تملكتها الدهشة، فهو يفوق كثيراً ما كانت تحصل عليه من دار نشر إدموند وبروك.

- إذا وجدنا أنك مناسبة لنا، وأن الوظيفة تناسبك، فسيكون هناك أيضاً بعض العلاوات، وهذا طبيعي في مجال الإنترنت. فالذين يراهنون على النجاح في عمل ما، تزداد رغبتهم في العمل ساعات طويلة.

شعرت أن عليها أن تخبره عن المقابلة في دار نشر كارلس، ولكن بما أنه منحها أسبوعاً لتفكر في عرضه هذا، قررت عدم ذكر ذلك الآن.

قال: «وهناك شيء آخر علي أن أخبرك به. إذا قررت أن تلتحقي «بمشاريع لوركا»، فكوني واثقة من أن رئيسك لن يحاول أن يستغلك. ستبقى علاقتنا عملية. أقول هذا لأن ظروفاً ستجعلنا نسافر معاً وقد ننزل في الفندق نفسه. ليس لديّ على الإطلاق أي دوافع شخصية تجعلني أعرض عليك هذا العمل وأرجو أن تصدقي ذلك».

- طبعاً... لم يخطر لي خلاف ذلك، فأنت لست ذلك الشخص الذي يستغل ضعف الآخرين.

لكنها شعرت بقلبها يهبط لأنها، إذا قبلت الوظيفة، فسيلتقيان بصورة دائمة. قال لها هازلاً: «لم يكن لديك مثل هذه الفكرة السامية عني».

وأنقذها من الجواب قدوم رجل هو من أفقر سكان القرية. حيا الرجل كالي بأدب، لكنه بدا أكثر إلفة مع نيكولاس، إذ أخذ يمازحه

عن ركضه اليومي، وبادله نيكولاس المزاح. وخطر لها أن الرجل الذي يتجاوب مع الناس كنيكولاس هو من لم تملأه الثروة والنجاح زهواً وغروراً. كلما زادت معرفتها به ازدادت إعجاباً بمزاياه. ولطالما أحبت من لم تفسدهم انجازاتهم الكبيرة وتملأهم إدعاء وغروراً.

قال: «بالمناسبة، طلبت شراء نسخ عدة من كتاب «نهر الحياة، والموت والحب» لأوزعها على أصدقائي الذين أعرف أنهم سيستمتعون بقراءته، ومنهم كاسيا، إذا لطالما كانت تتمنى السفر إلى الهند».

فقالت: «وأنا كذلك. هل سبق لك أن سافرت إلى الهند؟».

- إلى «دلهي» فقط ومكانين في «راجاستان».

تحدثا عن الأسفار، ثم قال نيكولاس: «سأسير معك إلى البيت».

وسبقها قبل أن تعترض: «أعلم أن هذا ليس ضرورياً، لكنني أحب ذلك».

عندما وصلا إلى بيتها، تملكها شعور قوي بأنها إذا رفضت عرضه هذا فقد لا تراه أبداً بعد الآن.

وعند الباب قال لها: «أبلغيني عن قرارك عبر الإنترنيت».

فقالت وهي تمدّ له يدها مصافحة: «سأفعل. تصبح على خير يا نيكولاس».

كانت يدها باردة بسبب برودة الليل. لكن يده كانت دافئة... دافئة، قوية، ومثيرة. وأرسل الاحتكاك رجفة في كيانها.

وإذا به يقول: «لم أصبح رئيسك بعد، وأظن، أنه بالنسبة إلى برودة الجو، عناق الوداع مسموح به».

في البداية، ظنته يعني عناقاً سريعاً لكنه عانقها بقوة عناقاً أرسل النشوة في أعماقها بطريقة لم تعرفها من قبل. وأخيراً ابتعد عنها وراح يرمقها بنظرات جعلتها ترى النجوم وقد ازدادت تألقاً والليل امتلأ بالوعود.

- تصبحين على خير.

أمضت كالي رحلتها في الطائرة إلى لندن وهي تحاول أن تقرر ما الذي ستفعله إذا نجحت في المقابلة، وحصلت على الوظيفة. حتى وقت قريب كان رفضها لتلك الوظيفة سيبدو جنوناً. لكن كثيرين سيعتبرون وظيفة نيكولاس معادلة لتلك الوظيفة، إن لم تكن مرغوبة أكثر. العمل مع نيكولاس سيدخلها مجالاً يحتوي على تطورات مثيرة، والمهارات التي ستكتسبها ستكون مطلوبة كثيراً، وذلك بغض النظر عن اهتمامها الشخصي بالرجل. أم أن كل هذه المبررات هي خداع للذات لأنها لن تحتمل الانفصال عنه؟

وفجأة، وما إن بدأت الطائرة في الهبوط، حتى خطرت ببالها فكرة. لكن هل لديها الشجاعة الكافية للقيام بذلك؟

استقبلها روبرت كارلس في غرفة عالية السقف رائعة الجمال تنسدل على نوافذها المستطيلة ستائر من الساتان صفراء باهتة، وتغطي جدرانها لوحات زيتية لأعظم أدباء القرن التاسع عشر.

حالما دخلت، نهض السيد كارلس من خلف مكتبه وتقدم يحييها. رحب بها بحرارة. وما كادا يتبادلان التحيات والمجاملات حتى أحضرت فتاة باسمة القهوة مع صحن عليه قطع بسكويت. بعد ثلث ساعة من الحديث، قال: «أظنك مناسبة تماماً يا آنسة هيغ، فما رأيك؟».

فأجابت: «منذ أسبوعين، كنت لأقفز من الفرح لهذا الحظ الكبير في العمل معكم، يا سيد كارلس. فقد كنت أشتري كتبكم وأحتفظ بها مذ كنت في المدرسة، ولكن منذ أيام عُرضت عليّ وظيفة تحرير، في مشروع مثير له صلة بالانترنت. وهكذا بات عليّ أن أختار بين فرصتين رائعتين. ولا أدري إذا كان هناك إمكانية للجمع بين الوظيفتين؟ هل يمكنني أن أعمل معكم بدوام حر، أم من الضروري أن يكون الموظف

الناجح هنا طوال الوقت؟».

أخذ السيد كارلس يفكر لحظات عدة ثم قال: «نحن لسنا قديمي الطراز كما تظنين. كثير من كتّابنا يمضون وقتاً في أماكن نائية من العالم، ونبقى على اتصال بهم بواسطة الإنترنت. وولدي متحمس جداً للإنترنت وقد صمم موقعاً لنا سيبدأ في السنة الجديدة. نعم، أظن أن بإمكاننا ذلك، لكن ليس بنفس الراتب كما لو كنت محررة داخلية».

تلك الليلة، تناولت كالي العشاء مع أوليڤيا وديبورا. وصلت إلى المنزل الذي يشتركن فيه قبل وصولهما. أرسلت رسالة بالإنترنت إلى نيكولاس تبلغه قبولها الوظيفة في شركة «مشاريع لوركا»، موضحة أنها في لندن لتنهي ارتباطاتها هناك. وتساءلت كم سيتأخر جوابه!

جاءت أوليڤيا قبل ديبوراه، وكانت قد أمضت يوماً متعباً. وبينما حضرت لنفسها كأساً من العصير، كانت كالي قد شرحت لها وضعها: «لكنني سأستمر بدفع الأجر لك حتى تجدي بديلة لي».

ـ هذه لن تكون مشكلة يا حبيبتي، فأنا أعرف حوالى عشر فتيات يتلهفن إلى مكان هنا. ولكن هل أنت واثقة من صحة قرارك؟ ألن تفتقدي لندن وحياتك هنا؟

ـ سأمضي زمناً في مدريد، وهي مدينة فاتنة...

ـ نعم، ولكن ألم تسمعي القول المشهور عن جوّ مدريد «تسعة أشهر من الشتاء وثلاثة أشهر من حرارة جهنم»؟.

ـ على الأقل ثمة تغيير بدلاً من اثني عشر شهراً من المطر.

قالت كالي هذا من دون أن تستطيع إخفاء ضيقها عندما يتحدث الناس عن لندن وكأنها مركز العالم، لا يماثلها مكان في الدنيا. وعندما وصلت ديبوراه، خرجن لتناول العشاء في أحد المطاعم القريبة الممتازة. ولكن رغم أن كالي كانت تستمتع دوماً بصحبة الآخرين وتحب الطعام الإيطالي، لم تستطع أن تكبح عدم صبرها لتعرف جواب

نيكولاس.

ولم يصل الجواب حتى الصباح التالي عندما قرأت: (مسرور جداً لقرارك. في العاشر من كانون الثاني سآخذك إلى مدريد. خذي حذرك من البرد القارس).

استمع والدا كالي إلى أخبارها عن الوظيفتين من دون أسئلة كثيرة، ولأنها لم تكن واثقة مما إذا كان نيكولاس يريد أن يبقي الأمر سراً حالياً، لم تتحدث عن مشروعه بالنسبة إلى «لا سوليداد»، لكنها أخبرتهما قدر إمكانها عن شركة «مشاريع لوركا».

وفي الثامن من كانون الأول، اتصل نيكولاس بها ليخبرها أنه عاد إلى القرية لكنه سيبقى يومين فقط، آملاً أن تكون مستعدة للرحيل في الساعة الحادية عشرة من بعد يوم غد. تسارعت خفقات قلبها لسماع صوته، ووافقت على طلبه. وعندما جاء لأخذها كانت في انتظاره بعد أن ودعت والديها. صافحها وحمل حقيبتها ثم خرجا معاً. وعندما خرجا من القرية لم يسألها إن كانت قد استمتعت بالعيد كما لم تسأله أيضاً عن ذلك.

ـ هناك كتاب أريدك أن تقرئيه. إنه نظرة شاملة ممتازة عن الصناعة الإيطالية. لقد وضعته في جيب بابك، وقد تحبين أن تبدئي بقراءته أثناء رحلتنا. أرجو أن لا يكون لديك مانع من أن أفتح الراديو على الموسيقى.

ـ أبداً.

قالت هذا مخفية شعورها بخيبة الأمل. كانت متشوّقة إلى الحديث معه، ولكن مجرد أن تكون بجانبه في رحلتهما بالسيارة إلى مدريد، يملؤها بسرور خفي.

الكتاب الذي بدا مملاً نوعاً ما في البداية، أصبح مشوّقاً الآن. كانت الموسيقى التي وضعها أنغاماً كلاسيكية. اندفعت السيارة إلى

الأمام تطوي الكيلومترات طياً. وكانا قد أمضيا على الطريق ساعتين عندما توقف نيكولاس ليملأ خزان الوقود، واقترح أن يتناولا قهوة. وقبل الثالثة بقليل وقف أمام مطعم. عندما اختارا ما يريدان من طعام قال نيكولاس: «عندما تقرئين كتاباً لمجرد الاستمتاع به، هل يمكنك أن تكبحي ملكة النقد التي تستعملينها عندما تعدّين كتاباً للنشر؟».

ـ ليس تماماً. لكن الكتاب الذي أعطيتني إياه لأقرأه، إما أنه لم يكن بحاجة إلى مراجعة، وإما روجع بخبرة بالغة بحيث استمتعت بقراءته. كما أن موضوعه يتصل بمجال لا أعرف الكثير عنه، ولهذا أنا أركّز على فهمه أكثر من نقده. بمناسبة الكلام عن النشر أريد أن أخبرك بشيء».

ـ كلي آذان صاغية.

حدثته عما جرى معها بالنسبة إلى دار نشر كارلس: «كنت ممزّقة إلى حد فظيع. لكنني أيضاً كنت أريد أن أعمل مع... «مشاريع لوركا»».

أوشكت أن تقول (معك) لكنها استطاعت أن تغيّر قولها في اللحظة الأخيرة: «ولحسن الحظ سيوظّفني السيد كارلس كمحررة خارجية. أرجو ألا يكون لديك مانع؟ أعدك ألا يتعارض هذا مع عملي في شركتك».

رأى نيكولاس ومضة القلق في عينيها. كان يعلم ما يكفي عن عالم النشر في بريطانيا لكي يدرك أن عرضاً من دار نشر مثل كارلس لها مثل ذلك التاريخ العريق، لا يمكن أن يقاوَم. وقد دهش لأنها لم تقبض على تلك الوظيفة بيديها الإثنتين وتقول لشركة «مشاريع لوركا» اذهبي إلى جهنم، رغم أنها ستكون أكثر أدباً في تعبيرها، وأنها لم تقل إن الوظيفة النظامية وحدها هي التي تهمها.

كان واثقاً من أن الوظيفة التي عرضها عليها رغم أنها تشكل تحدياً

ممتعاً، إلا أنها ليست مغرية إلى حد كبير. وهذا شجعه على أن يستنتج بأنها لم تكن تقاوم الانجذاب الذي بينهما بالقدر الذي كانت تدعيه.

ـ إذا كنت واثقة من أن بإمكانك أن تتدبري أمرك مع التزامين، فليس لديّ اعتراض. لكنه يبدو عبئاً ثقيلاً عليك. هل أنت متأكدة من قدرتك على احتماله؟

ـ إذا لم أكن كما تتوقع مني، فمن المؤكد أنك ستخبرني.

ـ يمكنك أن تعتمدي على ذلك.

قال هذا بنبرة جدية بينما تمنى لو يعانقها.

لقد بدت عملية للغاية ببنطلونها الأسود وسترتها ذات المربعات السوداء والبيضاء فوق بلوزة سوداء حريرية عالية الياقة. لاحظ نيكولاس وهما في السيارة أنها لا تضع عطراً نفاذ العبير كما تفعل نساء أسرته وكل النساء الأنيقات في مدريد. لكنه كان يعلم، من المرات التي عانقها فيها، أن بشرتها ذات رائحة طبيعية مثيرة أكثر من أي شيء في زجاجة مهما غلا ثمنه. لن يكون من السهل عليه أن يفي بعهده لها ألا يتحرّش بها ما دامت تعمل معه. لكن إحدى فضائله هي الوفاء بالعهود. وهذا يعني أن علاقتهما الشخصية قد وصلت الآن إلى طريق مسدود لا يمكن لأحد سواها أن يفتحه. وتساءل عما إذا كانت سترغب في أن تفعل ذلك.

الأمر الوحيد المؤكد هو أنه يرغب فيها أكثر مما رغب في امرأة أخرى على الإطلاق... وأكثر مما توقع على الإطلاق أن يرغب ويحتاج إلى امرأة في حياته. لكنها لن تعرف ذلك أبداً إلا إذا كانت من الشجاعة بحيث تضع الماضي خلفها وتأخذ المبادرة بنفسها. أتراها ستفعل؟ لا سبيل إلى أن يعلم. لكنه، على الأقل، سيحصل على سرور النظر إليها وتقديمها إلى الحياة الاجتماعية في مدريد.

كانت الأسابيع الأولى التي أمضتها كالي في مدريد هي الأسعد منذ

أيامها الأولى في «إدموند وبروك».

لم تفتقد هواء الوادي المعتدل اللطيف، فقد كانت مشغولة ومستمتعة معاً ببيئتها الجديدة عن التفكير في الجو. على كل حال، كانت تفضل أن تعمل في القطب الجنوبي على ألا ترى نيكولاس إلا نادراً.

لم تكن تراه كثيراً، لكنه كان يتوقف بين الحين والآخر عند مكتبها ليسألها إذا كانت الأمور تسير على ما يرام. فإذا قالت إن لا مشاكل هناك، فهو يتحدث معها عدة لحظات ثم يتابع طريقه.

كانت قد أمضت شهراً في مدريد عندما حدث أمران أدهشاها. الأول أنها تلقت مغلفاً كبيراً موجهاً من «اتحاد الناشرين الشبان» يحتوي على رسالة موقّعة باسم الآنسة. ب جونسون، تسألها فيها إن كان يهمها أن تنشر رحلاتها التي امتدت على خمس وعشرين سنة.

وكانت كالي قد قرأت الكثير من الذكريات الكئيبة بأقلام المسنين، لكنها رفضتها بلطف. قرأت الفصل الأول الذي أرسلته الآنسة جونسون، فإذا هو مكتوب بلغة سارة بسيطة مليئة بالحيوية وبروح الفكاهة. إذا كانت بقية الكتاب كهذه العيّنة، فلن يفشل في السوق أبداً.

أما الدهشة الثانية فأصابتها حين اتصلت بها ليونورا دريدن: «أمك أعطتني رقم هاتفك. هل أعجبتك مدريد؟».

ـ لقد عشقتها. لدي شقة صغيرة تعود لشركة نيكولاس وأنا أدفع أجراً رمزياً واكتسب أصدقاء وأمضي وقتاً رائعاً.

ـ كنت أرجو أن أسمع أنك ونيكولاس ستعودان إلى الريكاراسكا قريباً. حان الوقت لأقيم حفلة أخرى وإذا كنتما حاضرين ستزداد بهجتنا. أنا أتذكر كم كنت رائعة أثناء الحفلة الأخيرة.

ـ سأسأل نيكولاس عندما أراه. لكنه لم يقل شيئاً يبيّن أنه يفكر في

رحلة إلى القرية.

ـ هل تعرفت إلى أي من أفراد أسرته؟

ـ لا. لكنني لا أتوقع ذلك. فأنا جزء من حياته العملية، وليس الخاصة. كل زملائي ودودون مضيافون، وهو يعلم أنني لست وحيدة مستوحشة، بل على العكس تماماً.

ساد صمت قصير قالت ليونورا بعده: «هل أخبروك عن أمه؟».

ـ أخبروني بماذا؟

ـ أمه نبيلة إسبانية... الدوقة دي بالنازار، وهي تعيش في أحد أجمل قصور مدريد.

فقالت كالي بفتور: «أنت تمزحين!».

كانت هذه صدمة أسوأ من تلك التي تلقتها حين أخبرها لويس أن نيكولاس بليونير...

ـ أؤكد لك أن هذا صحيح. وصديقه سيمون موندراغون ماركيز. لقد رأيت ذلك في كتاب عندي يذكر كل نبلاء أوروبا.

حالما أحضرها نيكولاس إلى مدريد، أخبرها أن كاسيا ستذهب إلى الريف لتسكن مع حماتها حتى تلد طفلها. ومنذ ذلك الحين كانت كالي مشغولة جداً عن التفكير في كاسيا. تابعت ليونورا ثرثرتها عدة دقائق دون أن تدرك أي عاصفة أحدثت، ثم أنهت المخابرة.

مضت عدة أيام مليئة باليأس، بعد أن خسرت كالي آخر أمل في أن يحبها نيكولاس، ثم رأته مرة أخرى. بعد أن تحدثا قليلاً عن العمل، أدهشها بقوله: «هل تتذكرين ما أخبرتني به عن كتاب «سيرة حياة إسباني» وهو أكثر الكتب رواجاً هنا، وقلت لي إنك فشلت في أن تقنعي دار نشر «إدموند وبيرك» بترجمته؟ مؤلفه موجود هنا إذا شئت التعرف إليه».

ـ كثيراً، لكنك لم تقل إنك تعرفه.

- لست أنا بل أمي هي التي تعرفه. ستقيم سهرة الليلة، سآتي لآخذك في الثامنة والنصف.

وسرعان ما ابتعد بخطواته الواسعة وتركها تتساءل عما لديها من ملابس تناسب سهرة في منزل دوقة.

وفجأة، عاد إليها: «هل أحضرت معك ذلك الثوب الذي ارتديته في حفلة آل دريدن؟».

- نعم.

- هل لك أن تلبسيه. لقد أعجبني.

وعندما سار مبتعداً للمرة الثانية، تمتمت تقول: عليك اللعنة، لماذا تثير آمالي بينما تعلم كما أعلم أن ما من مستقبل لنا؟

كانت كالي على وشك الخروج من شقتها وهي غير واثقة من أن ما تلبسه سيعجب أمه، حين دُق جرس الباب. جاء نيكولاس في سيارة أجرة، وعندما جلست بجانبه قالت: «ألا تظن أنه كان عليك أن تنبهني إلى أن أمك دوقة؟ لم تكن لدي فكرة إلا بعد أن أخبرتني ليونورا في اتصال هاتفي».

- الناس من جيل ليونورا يعطون الألقاب أهمية أكثر مما أفعل أنا. أي لقب متوارث من قرون، لم تعد له أهمية هذه الأيام إلا إذا اقترن بالنجاح في مجال آخر كهذا الرجل الذي ستتعرفين إليه.

- لا بد أن لديك لقباً أنت أيضاً، ألا تستعمله أبداً؟

- ليس عندما أشاء. ولكن، أحياناً، لا يمكنني أن أتجنب ذلك. لكنني أتجنب ذلك قدر الإمكان، فأنا ذاهب إلى هذه الحفلة فقط لأنني شعرت بأنك ستسرين بمقابلة شخص تعجبين به.

التوى قلبها. إنها لا تريده أن يتصرف معها بكل تلك الرقة الفائقة، وقالت: «هذا لطف بالغ منك. وبالمناسبة، سألتني ليونورا إذا كنا سنذهب إلى الريكاراسكا قريباً لأنها ستقيم حفلة وتحب أن نكون بين

مدعويها».

- أنا لا أنوي قضاء أي وقت في «لا هيغارا» في المستقبل المنظور. إذا شئت أن تذهبي في عطلة أسبوعية طويلة فيمكنك ذلك. في شركة «مشاريع لوركا» كلنا راشدون نتحمّل المسؤولية ونبذل جهدنا في العمل، لكننا نأخذ عطلة كلما شعرنا أننا بحاجة إلى استراحة.

- أنا لست بحاجة إلى ذلك، فأنا مسرورة جداً في مدريد ولا أريد أن أغادرها ولو لفترة قصيرة.

دخلت السيارة من مدخل تعلوه قنطرة إلى فناء مبنى أشبه بالقصر، ذي مدخل مهيب تؤدي درجاته المسطحة إلى باب ضخم. نزل من التاكسي واستدار يفتح لكالي الباب. ورغم خشيتها من التعرف إلى أمه، عندما صعدا الدرجات، ازداد إحساسها بضغط أصابعه على مرفقها.

بعد ذلك بساعتين، وجدت نفسها تتناول عشاء خفيفاً مريحاً في مطعم قريب مع نيكولاس واثنين من أصدقائه لم يكونا من المدعوين إلى السهرة ولكنه اتصل بهما بعد ذلك. وأصدقاء نيكولاس هما زوجان طبيبان مختلفان جداً عن أولئك الذين قابلتهم في الحفلة والذين لم تحب أحداً منهم باستثناء المؤلف. وفي الحقيقة، بعد أن قابلت الدوقة، استنتجت كالي أن نيكولاس يشبه أباه. وهذا لا يعني أن أمه لم تكن لطيفة معها، لكنه لطف ممثلة أو محترفة وليس في أساس طبيعتها. وتملك كالي شعور بأن صاحبة «قصر بالتازار» غير راضية عن حياتها تماماً كأمها. معرفتها لصعوبة حياتها بين والدين غير متلائمين، جعلتها تتساءل عما إذا كان نيكولاس يشعر أيضاً بأنه مُبعد، وأن ما يبدو للغرباء ظروفاً مميّزة، كان يشعره بنقص خطير في الحب والمساندة التي يحتاجها الأولاد والمراهقون.

كان الوقت ما زال مبكراً عندما أنزلها عند باب شقتها. وعندما شكرته أجابها بلهجة رسمية غريبة: «بكل سرور».

في المرة الأخيرة التي أوصلها فيها الى المنزل في قرية الريكاراسكا ودّعها بعناق رائع. ربما نسي ذلك المساء، وحتى لو لم ينس، ربما لا ينوي أن يعيد الكرة مرة أخرى أبداً.

تعجب نيكولاس، وهو يعود إلى شقته، من قدرته على التحكم في مشاعره. كادت رغبته في معانقة كالي أن تهزمه، لكنه، بشكل ما، استطاع المقاومة. وتساءل عما عسى أن يكون رأيها في الحفلة وفي أمه. كان يجتاز ساحة «سانت آن» حين رن هاتفه الخلبوي: «نيكولاس، من هي تلك الفتاة الإنكليزية التي أحضرتها إلى الحفلة؟».

وكان هذا صوت أمه الأبح.

ـ إنها محررة إنكليزية تعمل معي، يا ماما.

ـ أحقاً؟ لم أكن أعلم أنّ المحررات أنيقات بهذا الشكل. يفترض أنهن ذوات عقل جاد ويلبسن ثياباً قديمة الطراز. هل تجمعك بها علاقة؟

ـ لا يا ماما. إنها مجرد علاقة عمل. كالي لا تقبل بالعلاقات العابرة، كما أن مظهرها مضلل. فهي ذات عقل جاد.

ـ أنا واثقة من أن بإمكانك أن تغير عقلها إذا حاولت.

ـ أنا أحب عقلها كما هو.

ـ إذا لم تكن حذراً، فستنتهي كأبيك. أكثر الرجال الذين تزوجتهم بلادة... رغم أننا استمتعنا كثيراً في البداية. أحياناً أتساءل عما إذا أخطأت في طلاقه.

وكعادتها أقفلت الخط من دون تحية، تاركة نيكولاس يتساءل عما إذا كانت خطته، بالنسبة إلى كالي، لن تصل إلى النتيجة التي يريدها.

مرّت الأيام، وعاشت كالي في مدريد. كانت تعمل اثنتي عشرة

ساعة يومياً في تحويل المصطلحات التقنية غير المفهومة إلى إسبانية وإنكليزية واضحتين، وفي كتابة تقارير تفصيلية على أوراق يرسلها إليها روبرت كارلس.

في أواخر شهر شباط سافرت إلى لندن لقضاء عدة أيام، وفي آذار أمضت عطلة أسبوعية طويلة مع أهلها في الريكاراسكا مستقلة القطار. وكان نيكولاس قد ذكر أن إصلاح «لا سوليداد» يسير ببطء أكثر مما كان يأمل، لكن لم يبدُ أنه يهتم للتأخير. وكان يحبّرها استئجاره لمنزل «لا هيغارا» بينما لا يمضي فيه وقته. ولكن يبدو أن من لديه مثل دخله، لا يقلقه تضييع بعض المال سدى كما يقلق الناس العاديين. وفي منتصف الشهر، أخذ الناس يتحدثون عن عطلة عيد الفصح.

ذات ليلة، كانت كالي آخر من ترك المكتب. وفجأة سمعت وقع أقدام بينما كانت تظن نفسها وحدها في المبنى. ظنت أن القادم هو الحارس الليلي، لكنه كان نيكولاس الذي ظنته في أميركا. قال وهو يجر كرسياً إلى جانب مكتبها ويجلس عليه: «لأجل من تعملين الليلة، لأجل كارلس أم شركة «مشاريع لوركا»؟».

ـ لأجل «مشاريع لوركا». تبدو مرهقاً بعض الشيء.

لم تره قط من قبل ولو متعباً بعض الشيء. وعزت ذلك إلى الرحلة في الطائرة النفاثة.

ـ كان شهراً شاقاً، لكنني سآخذ شهر عطلة قريباً. سأسافر إلى «آربيج»... المنطقة التي حدثتك عنها، إلى الناحية الأخرى من جبال البيرينيه. قضاء أسبوع فيها أو عشرة أيام سيفيدني.

رأته يدس أصابعه في شعره الكثيف الأسود بإرهاق ليس من عادته. شعرت بشيء يتملكها.. اهتمام بالغ وقلق عليه.

ووجدت نفسها تقول: «أتريدني أن آتي معك؟».

***

١٠ ـ سجينة البرج . . والحب

ساد صمت طويل لم تستطع معه النظر الى عينيه المتفحصتين فحوّلت نظراتها.

سألها: «لأي غرض يا كالي؟».

ـ يمكننا أن نستمتع معاً بالعطلة، فقد اقترحت أنت ذلك وأنا رفضت.

ـ ولماذا غيرت رأيك؟

ـ لأنني الآن أعرفك أكثر . . . ولا أرى مانعاً من رفقتك، بل أظن أن ذلك سيكون ممتعاً.

مضت فترة صمت أخرى قال بعدها: «ألا تخافين أن أقوم باستغلالك، فأطالبك بما لا تريدين إعطاءه لي».

ـ أظن أننا شخصان راشدان ويمكننا أن نسيطر على نزواتنا.

ـ فهمت. حسناً، آسف لأن الأوان فات يا كالي، لقد تغير عقلي أنا أيضاً، أو بالأحرى قلبي. فأنا لست مستعداً لعطلة مرحة دون روابط عاطفية بعد الآن. ربما يجب أن أشعر بالزهو لقرارك قضاء فترة ممتعة خالية البال معي. لكن تلك الأيام انتهت. . . ذلك أنني وقعت في الحب . . . وبشكل جاد مع فتاة أريدها في حياتي بصورة دائمة.

شعرت كالي بالعالم ينهار من حولها. قوله إنه وقع في الحب كان صدمة بالغة هي أكثر إيلاماً من أي شيء شعرت به، حتى فقدانها

لوظيفتها السابقة. كان ألمها أكبر من أن تستطيع إخفاءه. حدقت إليه برعب وعيناها تنطقان بكل ما في نفسها من ألم ويأس.

لقد فقدته . . . لن يمكنها الوصول إليه بعد الآن . . . فقد منح قلبه لامرأة أخرى . . . امرأة تناسبه أكثر منها بكثير. وفي لحظة من الألم المبرّح، أدركت أنها كانت طوال الوقت توهم نفسها أن من الممكن أن يحبها يوماً ما، رغم كل العقبات التي تقف بينهما. وكان تحطم هذا الأمل الآن هو أسوأ لحظة في حياتها. وقالت بصوت أجوف: «هذا رائع. أرجو لك السعادة. وأنا . . . أنا آسفة لأنني خدعت نفسي».

ـ بل على العكس، ربما أنا الذي خدعت نفسي.

لم تعرف ما الذي يتحدث عنه، لأن ذهنها لم يكن يفكر بشكل صحيح. وسألته بلهجة آلية: «ماذا تعني؟».

ـ لا أظنها تعلم شعوري نحوها.

ـ حسناً، أخبرها. ما الذي يمنعك؟

قالت ذلك حانقة. من المؤكد انه لن يزيد عذابها بإفضائه لها بكل مشاعره نحو فتاة أخرى.

ـ وماذا لو أنها لا تبادلني الشعور نفسه؟

ـ أظنها ستفعل . . . أنا واثقة من ذلك.

عجبت لقدرتها على ضبط النفس. كيف يمكنها أن تناقش هذا الأمر كمستشارة علاقات بينما هي تريد أن تهرب لتختبىء في مكان مظلم حيث لا يشهد أحد عذابها؟

ـ أظننا نلتقي هنا، يا كالي. فأنا أتحدث عنك. أنت عرضت عليّ الذهاب معي إلى الجبال. ولكن ما رأيك في أن تتزوجيني؟

فهتفت بتبلد: «ماذا؟».

اهتزت ابتسامة حول شفتيه: «سآخذك إلى «أربيج» بكل سرور، ولكن بشرط واحد هو أن تعديني بالزواج حالما نعود».

ثم وضع يديه على كتفيها وقال بلهجة أكثر جديّة:

ـ أحبك، وكنت أنتظر بصبر ما يشير إلى أن شعورنا مشترك، هل هو كذلك؟.

مضت لحظات قبل أن تستوعب أنه لم يكن يخدعها. إنه يعني ذلك. نيكولاس، الرجل المستحيل، يحبها كما تحبه؟ أخذت نفساً عميقاً مرتجفاً: «طبعاً، أيها الغبي».

قالت هذا وهي بين الضحك والبكاء. فأخذها بين ذراعيه وعانقها كما لم يفعل من قبل، وقد شعر بالارتياح الذي كانت تشعر به.

ـ فلنذهب إلى مطعم هادىء حيث يمكننا أن نتحدث... أو نعود إلى شقتي ونطلب أن يحضروا لنا الطعام إلى هناك. ما رأيك؟

شعرت أنها تريد البقاء بقربه، إذ أن هناك الكثير ليتحدثا عنه. فقالت بسعادة: «هذا رائع».

وعندما غادرا المبنى كان الحارس في الردهة، فقال له نيكولاس: «أنت أول من سيهنئني، يا إسبنت. لقد وافقت السنيورا هيغ لتوّها على الزواج مني».

فقال الحارس وهو يصافحه: «هذا رائع، يا سيدي، ستبتهج زوجتي جداً عندما أخبرها».

والتفت إلى كالي: «أصيبت زوجتي بحادث منذ سنتين، ولولا مساعدة السيد نيكولاس لنا، لما شفيت تماماً... خطيبك من أكثر الناس شهامة. وأنا لا أقصد أن أكون وقحاً حين أقول إنك شابة محظوظة في زواجك منه».

فقال نيكولاس: «إيسنت يبالغ».

ولأول مرة تراه كالي خجولاً. تجاهلت ما قال، وقالت للحارس: «أنا أعرف أنني كذلك، لكنني سأبذل جهدي لأكون الزوجة التي يستحقها».

ـ سأعتبر هذا وعداً منك.

قال نيكولاس هذا وهو يلف ذراعه حولها. بدت لهجته هازلة لكن الحنان ظهر واضحاً في عينيه.

سارا وسط المدينة متشابكي الأصابع. لطالما بدت مدريد أجمل وأكثر حيوية من لندن في الليل، لكنها لم تبد لهما قط من قبل بجمالها الآن. المبنى حيث شقة نيكولاس يقع في الشارع العصري الوحيد للمشاة الذي يحتوي على متاجر راقية للملابس والمجوهرات. كانت شقته في الطابق الأعلى. وعندما قادها إلى غرفة الجلوس، رأت جداراً مغطى بالكتب، وآخر باللوحات الفنية، فيما النوافذ التي تمتد من الأرض إلى السقف، تطل على حديقة على السطح خفيفة الإضاءة. قال لها: «دعيني أخلع عنك معطفك».

أخذت تفك أزرار معطفها الصوفي، وقف خلفها يساعدها على خلعه. أما هو، فلم تره كالي يلبس معطفاً حتى في أبرد الأجواء. كل ما يقاوم البرد به هو وشاح أزرق من الكشمير يلفه حول عنقه. قال وهو يضع معطفها على ظهر كرسي: «هل أنت جائعة؟».

ـ ليس كثيراً.

وأخذها بين ذراعيه وراح يداعب شعرها بلطف بيده قائلاً: «أظن أنك تشعرين بالتعب بعد نهار طويل من العمل المتواصل».

فكرت كالي أن تعبها كله تلاشى ما إن شعرت بلمسة يديه.

ما أطول الليالي التي كانت تمضيها متقلبة في فراشها تحلم به وتعذبها صور تستعيدها مخيلتها وذلك دون أمل بتحققها يوماً ما! وها هي الآن، أخيراً، بين ذراعيه وقد تلاشى كل خوف من قلبها.

قطع نيكولاس عناقه لها وقال: «منذ تلك الليلة التي ذهبنا فيها إلى «لا سوليداد» وخفت أنت من الأفعى، وأنا أحلم بأن أعانقك. هل تتذكرين؟ أنا أتذكر، فقد شعرت أنني أريد أن آخذك بعيداً حيث لا

أتوقف عن معانقتك».

والتهبت عيناه بحرارة لم ترها فيهما من قبل. وقال بالإسبانية بصوت منخفض أجش: «والآن، أصبح بإمكاني أن أعانقك متى شئت. ولكن ما أريده الآن هو أن أشعر بك بقربي».

ووضع يديه على خصرها يجذبها إليه شيئاً فشيئاً بينما رفعت مرفقيها تضعهما على كتفه. وتمتمت: «هذا رائع».

ـ مممم... أوافقك، ولكن إذا استمرينا على هذا النحو فلن نصل الى غرفة الطعام.

سألته وهي تنظر إلى باب داخلي: «هل ذلك هو الحمّام؟».

ـ نعم... أتريدين أن تستعمليه؟

بعد ذلك بدقائق، خرجت من الحمام لتجده ممدداً على الأريكة في غرفة الجلوس.

ـ استعملت فرشاة أسنانك. ألا بأس في هذا؟

فمنحها ابتسامته الساحرة: «أليس الاشتراك في فرشاة الأسنان هو أحد اختبارات الحب؟ أنا بحاجة إلى دخول الحمام أيضاً. سأعود حالاً».

جلست على الأريكة تنتظره، شاعرة وكأن العالم كان طوال حياتها صورة منحرفة وقد اعتدلت الآن.

عاد نيكولاس يجلس بجانبها، وراح ينظر في عينيها: «مضت عليّ أوقات ظننت فيها أننا لن نصل إلى هذا الحد مطلقاً، الشهور التي عرفتك فيها بدت لي سنوات».

فابتسمت له: «لكننا الآن هنا وليس علينا أن نخشى شيئاً، تقريباً سوف نتزوج».

وكما فعلت مرة منذ وقت طويل، رفعت يديها لتلامس وجنتيه ونكه القوي: «أشعر وكأنني أحببتك طوال حياتي، حتى أنني، في

أعماقي، عرفتك ما إن وقفت في بابنا في قرية الريكاراسكا».

فقال برقة: «وأنا أيضاً شعرت بأنني عرفتك طيلة حياتي».

ثم قهرهما الشوق المكبوح طويلاً نحو بعضهما البعض. فأخذ يعانقها برقة. وجدت كالي أنها لا تريد من الدنيا أكثر من التمتع بحنانه وحبه. فمنذ فترة قصيرة فقط كانت لا تزال في مكتبها دون أن تحلم بأن الغد، سيكون بداية حياة جديدة مليئة بالنشوة.

قالت مداعبة: «لا أشعر بإرهاق، أنت هو المنهك وهو ما لم أكن لأصدقه أبداً».

فضحك برقة: «أنت التي تعيدين الحيوية إليّ».

لماذا كان يبدو بذلك الغموض، بينما أصبحت الآن تعرفه، مع مرور الوقت، كما تعرف نفسها؟ ألقت كالي برأسها على صدره، فأحبت رائحته الطبيعية أكثر.

ثم ابتعد عنها بلطف قائلاً: «سأفتح زجاجة عصير ثم أقرر ما نأكل».

وفي المطبخ أحضر ملفاً يحتوي على أسماء كل أنواع الأطعمة الجاهزة التي ترسل إلى البيوت. وبينما أخذ يفتح الزجاجة، أخذت هي تنظر حولها.

ـ أتعيش على الأطباق الجاهزة؟

ـ غالباً ما أتناول الطعام خارجاً. ولماذا أطهو بينما هناك عشرات من الطهاة المحترفين على مقربة من البيت؟

عندما اختارا عشاءهما وطلباه، قال: «أتريدين أن تتصلي بوالديك الليلة، أم تفضلين أن نذهب إليهم غداً ونخبرهم شخصياً؟».

ـ ظننت أننا سنذهب إلى «آربيج». ألا يمكنني الاتصال بهما من هناك؟ لا أراك ستعرفني بكل أقربائك، أليس كذلك؟

سألته وهي تفكر في تلك المهمة الشاقة من التعارف الأسري،

بينما كل ما تريده هو أن تكون معه وحدهما.

ـ لا، هذا ليس ضرورياً. لكنني أظن أن علي أن أزور والديك احتراماً لهما. يمكنك أن تجتمعي بأمي مرة أخرى عندما نعود من رحلتنا، والذهاب إلى قرية الريكاراسكا ليس رحلة طويلة.

وفي اليوم التالي، أثناء رحلة العودة إلى القرية، أخذت كالي تتأمل معجبة الخاتم الأثري الزمردي الذي أحضره لها نيكولاس من مصرفه ذلك الصباح. لطالما اعتبرت الزمرد أروع المجوهرات جمالاً، وعندما عرض نيكولاس عليها أن تضعه بديلاً لخاتم الخطبة الذي سيختاره لها فيما بعد، سألته إن كان بإمكانها أن تحتفظ به، فكان أن قال لها: «طبعاً إذا كنت واثقة أن هذا ما تريدينه. لقد ورثته عن جدتي لأبي التي تركت لي كل مجوهراتها لزوجتي المقبلة».

عندما توقفا ليتناولا الغداء، قال: «لقد غيرت رأيي بالنسبة إلى المنزل «لا سوليداد»، أظن أنّ عليّ أن أنقل مركز التصميم إلى مكان آخر لكي نبقي المنزل لاستعمالنا الشخصي. لقد كان منزل الأسرة يوماً ما، ويمكنه أن يعود كذلك».

ـ أليس كبيراً على أسرة عصرية؟

ـ لم أكن أفكر فينا، أنا وأنت أو في أولادنا، بل في أبي عندما يتقاعد ويريد أن يأتي أحياناً لقضاء فترة في الريف فيكون معنا. وربما بعد سنوات، قد يرغب أبواك في أن يتركا النزل ويعيشا حياة سهلة.

سألت: «ولكن هل تريد حقاً أن تأخذ إليك أبويّ كما تأخذني؟».

ـ أنا لا أقول إننا سنعيش في «لا سوليداد» طوال الوقت... بل أحياناً فقط، كلما شئنا ذلك.

تلقى والدا كالي خبر زواج ابنتهما القريب من إسباني بحذر نوعاً ما، كما توقعت كالي. لكنهما لم يكونا قد أدركا بعد أن صهرهما ليس عادياً كأي مدريدي آخر. أما جوانيتا والزوجان دريدن، فقد كانوا أكثر

حماساً. وقالت لهما جوانيتا وهي تعانقهما: «كنت أعلم أنكما مخلوقان لبعضكما البعض».

وبعد ذلك بقليل، قالت ليونورا: «أعتقد أن لمنزل «لا هيغارا» تأثيراً عاطفياً على من يقيم فيه فترة. كم ستمكثان هنا؟».

فقال نيكولاس: «الليلة فقط، وسنرحل غداً لنبدأ في معالجة أمور متى وأين وكيف سيتم الزواج. نحن الاثنان لدينا الكثير من الأصدقاء الذين يتوقعون دعوة إلى العرس وأنا لدي مجموعة كبيرة من الأقارب سنُجرح كرامتهم إذا لم أوجه إليهم دعوة».

حتى في سيارة نيكولاس، ستستغرق الرحلة من الريكاراسكا إلى الجانب الفرنسي من جبال البيرينيه اثنتي عشرة ساعة.

قال مداعباً: «لا أريدك أن تكوني مرهقة عند وصولك إلى حدّ يجعلك تغيرين رأيك في الزواج بي. سنمضي أول ليلة في القصر في «كاردونا»».

وأثناء الرحلة إلى كاردونا، حدثها عن تاريخ القصر: «له برج يسمى «برج منيونا»، في «كاتالان» معنى كلمة «منيونا» هو خادمة، وصبية صغيرة، وعذراء... في القرن الحادي عشر، «أداليز»، ابنة صاحب القصر، وقعت في غرام رجل عربي. فحكم عليها أهلها بالعيش في البرج سجينة وحدها ترافقها خرساء. ولا عجب أن مرضت ثم ماتت بعد سنة من ذلك».

كان سهلاً على كالي أن تتعاطف مع تلك الفتاة التي حُرمت من حبيبها، فقالت: «يا لها من قسوة! أما كان بإمكانه أن ينقذها؟ يخطفها..؟».

ـ أعتقد أنه فكر في ذلك، ولكن عندما ترين القصر، ستدركين مبلغ استحالة ذلك.

كانت الشمس مشرقة طوال الطريق. أخذا يتبادلان القيادة، إذ

كانت ثقة نيكولاس في مهارتها أكثر من ثقتها بنفسها، حتى أنه أخذ غفوة أثناء قيادتها. بعد توتر خفيف، اعتادت على قيادة سيارته والتحكم فيها، ومن ثم الاستمتاع بقيادتها. توقفا للاستراحة وشرب القهوة، ثم تناولا الغداء.

وعند العصر، لاح لهما الحصن القديم الذي يعود بناؤه الى القرون الوسطى، يتطاول نحو السماء عند سفح التل. وبدا منيعاً للغاية. لكن جناحهما فيه كان مريحاً تماماً.

ـ الحمام، ثم فترة من الراحة قبل العشاء. ما رأيك؟

قال لها نيكولاس هذا بعد أن أحضر الحمال الحقائب ثم خرج.

ـ جيد تماماً.

فابتسم: «من المحزن أن آداليز وحبيبها العربي لم يستمتعا بهذه اللحظة!».

ومد ذراعه يجذبها إليه فوضعت ذراعيها حول خصره وأراحت جبينها على صدره: «لا أستطيع أن أحتمل التفكير في تعاستهما. أنا نفسي كنت تعيسة، لكنني على الأقل كنت أراك... وأشتغل معك، ولست مبعدة عنك ومسجونة. والأسوأ هو أن هذا النوع من الناس المتعصبين ما زالوا يفرقون بين الناس بعد مرور مئات السنين».

ـ يبدو أن الغباء لن يتلاشى قريباً. لكنني لا أظن أن علينا أن نقلق لذلك الآن.

ورفع وجهها إليه: «أنت من الجمال بحيث كنت طوال الوقت أنظر إليك وأنت تقودين السيارة، فيما تفكيرك مركّز على الطريق. كان بإمكاني أن أراقبك لساعات دون ملل على عكس ما يشعر به الشخص وهو ينظر إلى الوجوه الجميلة الفارغة في المجلات وعلى شاشة التلفزيون».

طارت كالي فوق جبال البيرينيه عدة مرات لكنها لم تسافر قط بالبر

فوق ذلك السدّ المنيع بين النصف الشرقي الفرنسي ومنطقة بروفنس الشمالية في إسبانيا.

ـ أثناء الحرب العالمية الثانية، كان هناك «طريق الحرية» للهرب من الاحتلال النازي في فرنسا من خلال هذه الجبال.

وخطر لها كم هو رائع أن يكون لديها دوماً شخص يحب القراءة والإطلاع مثل نيكولاس فيساعدها على إيضاح أفكارها وحلّ مشاكلها.

وعندما تحدثت عن ذلك أثناء الغداء، قال: «هذا هو السبب في امتناعي عن الزواج.. لأنني رأيت أن على الزواج أن يكون زمالة على أكثر من مستوى. وحتى عرفتك، لم أكن قد عقدت ذلك النوع من الصداقة والإلفة مع امرأة. الجسم والعقل والروح ثالوث متلازم لا أظنه يحدث إلا نادراً. لكنه حدث معنا».

ـ وهذا غريب، بالنظر إلى مبلغ اختلاف خلفياتنا.

ـ ربما هو اختلاف سطحي، ولكن ليس في الأساس. حتى الآن كنا، نحن الاثنان لا نزال عازبين، لكننا لسنا غير اجتماعيين.

من الصعب عليها أن تصدق أن نيكولاس، منذ أيام قليلة، كان يبدو نائياً متعذر الوصول إليه كقمم الجبال التي قطعاها. ومع ذلك، في وقت قصير جداً، أصبحا خطيبين متقاربين في الفكر والمشاعر معاً. استلقت في فراشها وأغمضت عينيها بانتظار الحدث السعيد الذي سيجمعهما في سرير واحد في وقت قريب.

***